الشعوبية

أسبابها و دوافعها

ملحق به أصول أهم الشخصيات التاريخية والعلمية البارزة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية

الباحثة

يشار أيهن

الشعوبية

" الشعوبية نزعةٌ قامتْ على مُفاخرَة الشعوب الأعجمية – وفي مقدمتها الشعب الفارسي - للعرب مفاخرةً تستمدّ من حضارتهم العريقة و مما كان عليه العرب من بداوةٍ و حياةٍ خشنة غليظة"

و الشعوبية لم تَكُنْ يوماً حركةً حزبية منظمة الأدوات والأهداف،كما يُوهِمُ اسمُها ، بل هي تعبير عن نزعةٍ أظهرتْ مجموعةً كبيرة من ردود الفعل التي كانتْ في معظمها فردية ، وكانتْ في حدود الوجدان الفردي والمشاعر الساخطة فحسبْ ،و لم تتحوَّل في يوم من الأيام إلى عمل مجموعي (حزبي)منظَّم ..

وهكذا فالنَّزعةُ الشعوبية التي نقرأ عنها في التاريخ العربي الإسلامي كنا دائماً نصادف آثارَها هنا وهناك عند بعض العلماء والمفكرين والأدباء والشعراء من الشعوب الإسلامية غير العربية ، وكانت تعبِّر -فيما صدر منها من آثار شعرية أو أدبية - عن ألم نفسي عميق تركتْه المعاملةُ العنصرية القاسية التي مارستْها الدولة العربية الإسلامية (في عهد بني أمية بوجه خاصّ) تجاه شعوب البلاد المفتوحة ..

ونحن - منذ البداية – ننبّه إلى حقيقة جازمة لابد من ذكْرها هنا : وهي أن الإسلام ،في دعوته وفي مبادئه ، جاء على أساس أممي ؛ فهو" رحمة للعالمين " أي رسالةُ هدى للناس كلهم دون استثناء ، ثم إن القرآن الكريم كان صريحاً في نبذ أيِّ تقوقعٍ عنصري وفي محو أيِّ فوارق عنصرية أو عرقية أو قبلية وقد جاء فيه :" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا.. "

ثم ذكر القاعدة والميزان الذي هو فيصل التفاضل بين البشر فقال :

" إنَّ أكرمَكُمْ عند الله أتقاكم ".

وجاءتْ أحاديثُ الرّسول لتؤكّدَ هذا المبدأ وترسِّخَه وتزيل عنه كلَّ لبْس ، فقد قام الرسول خطيباً في مئاتٍ بل ألوفٍ من المسلمين في عَرَفات في حَجَّة الوداع ، فقال :

" أيها الناس كلُّكم لآدمٍ .. وآدمُ من تراب ، لا فضلَ لعربي على عَجَمي إلا بالتقوى ".

وقال في موقع آخر :

النّاس سواسية كأسنان المشط ، لا فضْلَ لأبيضَ على أسْودَ إلا بالتقوى ، ولا فضْلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ إلا بالتقوى ، .. إن الله لاينظر إلى صُوَرِكم ولكنْ ينظر إلى قلوبكم .. التقوى ها هنا .. التقوى هاهنا .وأشار إلى قلبه ! "

وإذن .. فالإسلام بريء مما فعله حَمَلَتُهُ من العرب الفاتحين الذين ما إن دخلوا بلادَ الناس ، حتى أسقطوا هذه القاعدة الشرعية الإسلامية ، وأخذوا يعاملون رعاياهم من غيرالعرب (حتى المسلمين منهم) معاملة سيئة ظالمة .. وكان هذا على أسوأ صوره على عهد الدولة الأموية (وكانت دولةً ذات نهج عربي عنصري صارخ ..) إذ إن الشريعة الإسلامية تفرض الجزية على رعاياها من غير المسلمين فحسب ، وبمجرد أن يدخل المرء في دين الإسلام ، فقد وجَبَ شرْعاً أن تسقط عنه الجزية (وهي ضريبة ترمز إلى إذعان من يدفعها وإعلانه الخضوع بذِلَّةٍ لدولة الإسلام) .. قال تعالى :

" قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر و لا يُحَرّمون ما حرَّمَ اللهُ ورسولهُ و لا يَدِينُونَ دينَ الحقّ من الذين أُوتوا الكتابَ حتى يعطوا الجزْيةَ عن يَدٍ وهم صَاغِرون " (الآية ٢٩من سورة التوبة).

أي حتى يدفعوا الجزية المفروضة عليهم رغماً على أنوفهم وتعبيراً عن إذلالهم !

ولكنَّ الخلفاء المسلمين من بني أمية ظلُّوا يفرضون الجزيةَ حتى على مَنْ أسلم من شعوب فارس وخراسان وبلاد "ما وراء النهر " بضعةَ عقودٍ من الزمن ، وقد حدَثَ في ما وراء النهر (تركستان) أنْ راجع المسلمون من أهل هذه البلاد عاملَ بني أمية عليهم (أي الوالي الذي ينوب عنهم وكان دائماً من العرب)، وسألوه باسم الدين الذي اعتنقوه أن يسقط عنهم هذه الضريبة المخزية المذلّة ، والتي لا يجوز شرعاً أن يدفعها من أسلم ؛ فما كان جواب سادته الخلفاء الأمويين إلا أن قالوا لعاملهم هناك : " لعل هؤلاء ما أسلموا إلاّ لنرفعَ عنهم الجزية " ؟! ..

فلما طالتِ السّنون ، وقام الشعب الذي أسلَمَ في "ما وراء النهر " ببناء المساجد من نفقاته وتبرُّعاته الخاصة ، وأكثَرَ مِنْ بذل الأموال في سبيل الله .. خَجِلَ الوالي (عامل بني أمية عليهم) ، فعاد يسأل سيّدَه الخليفةَ الأموي أن يسقط عنهم الجزية موضحاً له أن هؤلاء -رغم دفعهم الجزية ظلماً وعدواناً - قد ثبت رسوخهم في الإسلام ، بل وعمروا المساجد وساهموا في الصدقات ؛ فإسلامهم إذن لا يمكن أن يكون تهرّباً من ضريبة الجزية !. . ولكنْ.. مرةً ثانيةً ..

يأتي الجوابُ عليه أسوأ من الأول وأمعنَ في الظلم وفي التفرقة العنصرية بين العرب وغير العرب من المسلمين .. كان الجواب : " أبْقِ على الجزية .. فالخزينة بحاجة إلى المال " ! .

هذه السياسة لم تقع على مَنْ أسْلم مِنْ أتراكِ ما وراء النهر فحسْب ؛ بل وقعتْ على أهل خراسان وأهل فارس في شرقي الدولة ، وكذلك صنعوا مع البربر (السكان الأصليين للمغرب والجزائر وتونس) هؤلاء البربر الذين أسلموا وحَسُنَ إسلامُهم بل وكانوا جنودَ الفتح الإسلامي لجزيرة الأندلس التي فتحت على يد جيش كان كله من البربر (١٢٠٠٠ جندي تقريباً) يرأسهم البطل البربري طارق بن زياد مع البطل موسى بن نصير (وهو من الموالي أيضاً) فتأملْ .. واعجبْ !! (١)

هذه السياسة العنصرية المؤلمة التي مارسها العرب (وخاصة في عهد بني أمية) تركت أثراً موحشاً في نفوس الشعوب الإسلامية الأخرى (من فرس وخراسانيين وأتراك وبربر) ، وكان هذا الألم يتضاعف حدّةً لسببين :

أولهما : أن هؤلاء العرب الذين حملوا إليهم راية الإسلام –على أنه هداية وعدل ومساواة ومحبة –كانوا أول من خالَفَه في معاملة ضيوفه الجُدُد ، فبدلاً من أن يستشعروا عدلَه وسماحتَه على أيديهم ، قام أولئك العرب بتسويد الصفحة ، وكانوا في معاملتهم كأسوأ ما يكون المستعمرُ الغاشم ..

فالتاريخ يحدِّثنا عن عمَّال الأمويين (الولاة) وأمراء جيوشهم وساداتهم كيف كانوا يغتصبون أموال البربر (إضافة للجزية) ، وكانوا كثيراً ما يستلبون رؤوساً من الماشية من قبائل البربر .. وقد اشتكى هؤلاء مرةً بعد مرة ، وجاء وفْدٌ منهم عابراً آلافَ الأميال إلى الخليفة يشكو إليه ظلم ولاته ولكنْ ..ذهبتْ شكواهم أدراج الرياح !! ..

---

[1] - لعلك ستعجَبُ أكثر إذا علمْتَ أنّ الخليفة الأموي/ سليمان بن عبد الملك / أرسل فاعتقل موسى بن نصير مباشرة بعد انتهائه من فتح الأندلس ، بل وأرسل يحرّض مَنْ قَتَل ابنَه البطل / عبد العزيز بن موسى / الذي أنابه أبوه عنه في حكم الأندلس ، وكان في عداد كبار الصالحين والفاتحين ! (كتاب:نفح الطيب ج ١ ص٢٦٢ –و كـ: الإمامة والسياسة لابن قتيبة ص ١٥٨)

وقد فعل مثل ذلك - هذا الخليفة نفسه - مع البطل الفاتح قتيبة بن مسلم ، فقد حرَّضوا عليه بعض الأعراب من جنوده فقتلوه وقتلوا أولاده وأسرته دفعة واحدةً (إذ كانوا جميعاً في خيمة من خيم الجيش). (تاريخ الطبري ج ١٦ ص ٥١٩)

فقامت على إثر ذلك ثورات البربر بين الحين والحين .. وكذلك ثورات الأقباط المتكررة في مصر !

..وفي بلاد ما وراء النهر ، لما ثارَ أهلُها قَمَعَهُمْ بنو أمية قمْعاً رهيباً، وذبحوا منهم ألوفاً .

وهكذا فالحكم العربي الإسلامي – في واقع الحال- لم يكنْ في الصورة المثالية الزاهية التي كان يرسمها لنا علماء الدين أو بعض المؤرِّخين التربويين .. بل كان صورةَ مجتمعٍ عاديٍّ يجتمع فيه الإنسان الصالح الدمث الرقيق بالجلف الجافي وبالدنس السافل .. وليس غرضُنا هنا أن نتتبَّع مثالبَ ذلك العهد أو عيوب ذلك المجتمع (١)

ثانيهما : أن جميع الشعوب الأخرى وخاصة الروم والفرس كانوا – ومنذ زمن بعيد – يعرفون العربَ معرفةً جيّدةً ، وكانوا على درايةٍ و افية بنمط حياهم من خلال التجَّار العرب ، ومن خلال غارات البدو اللصوصية على أطراف هاتين الإمبراطوريتين ..، ومن خلال بعض الأسْرات الملكية العربية كالمناذرة والغساسنة التي أعلنَتْ خضوعَها وولاءَها لإحدى هاتين الدولتين الحضاريتين - وكانت هذه الشعوب الحضارية الراقية (اجتماعيّاً وثقافياً و علمياً وفنياً ، وكانوا مَنْ كانوا في علوم الفلسفة والمنطق والرياضيات والفيزياء وغيرها ..) تنظر إلى العرب على أهم أولئك الرعاة الهمَج الجفاة ؛ وكان العرب– عبر تاريخهم قبل الإسلام – لايعبأ هم أحد ، وليسوا عند ذينك الشعبين – الروماني والفارسي – إلا رعاة بداة يسيحون في أرض قاحلة لاخيرَ فيها ولا فيهم..

فلنأخذْ مما يلي مثالاً على مدى الفارق الهائل بين المستوى الحضاري للرومان أو اليونان و بين واقع العرب المتردّي ثقافياً و حضارياً في(الجاهلية و في صدر الإسلام) : في القرون السابقة لميلاد المسيح (أي قبل ولادة الرسول محمد (ص) بما يقارب الألف عام . تصوّر!!) كانت الحضارة اليونانية المذهلة قد بلغت

---

[1] و البداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ٢٥٩ و ما بعدها – فتوح البلدان للبلاذري ج ١ ص ٤١٧ و ما بعدها – و العقد الفريد لابن عبد ربه ج٣ ص ٤٠٣ وما بعدها - و أيضاً : تاريخ الأدب العربي\ج٢ص٢٠٧ وما بعدها\ د.شوقي ضيف).

أعلى درجات العطاء العلمي و الثقافي : ففي هذه الفترة أنجب اليونان هوميروس (صاحب الإلياذة) أعظم شعراء الملاحم الشعرية في تاريخ الإنسانية حتى عصرنا هذا !

وفي هذه الفترة عينها عاش (أقليدس) مؤسس علم الهندسة ، و برز فيها (تاليس) و (فيثاغورس) اللذين لا نزال ندرس نظرياهم العلمية في مدارسنا المعاصرة.

و في ذلك العهد نفسه عاش الفيزيائي النابغة (أرخميدس؛) وظهر أبقراط مؤسس علم الطب على أسسٍ علميةٍ أخلاقية بعيداً عن الشعوذة و الخرافات ، و مثله الطبيب الشهير جالينوس .

و عند هؤلاء اليونانيين ولدت الفلسفة و نمت و بلغت أقص درجات الكمال ، ومنهم ظهر أعظم فلاسفة التاريخ على الإطلاق و أشهرهم : سقراط و أرسطو و أفلاطون !

وفي ذلك العهد البعيد ظهر (هيرودوت) أبو التاريخ و الجغرافيا الذي تشهد له كتبه بعُلُوّ كعبه في هذين العلِمين،

و تبدو في كتاباته الدقّة العلمية المنهجية في روايته للأحداث التاريخية و في معلوماته الجعرافية ،و قد ترك لنا خريطةً للعالم القديمشك مدى دقّته في رسمها قياساً للوسائل المتاحة في ذلك العهد البعيد .

و تصوّر - بعد الذي قرأتَ من شأن اليونان – أن العرب و بعد ألف عامٍ من عصر تلك الحضارة اليونانية الهائلة كانوا – بجملتهم - لا يزالون أمّيين لا يعرفون شيئاً عن القراءة و الكتابة !

وحتى مَنْ بلغ درجةَ الملك فيهم كان أشبَهَ بعبدٍ مأمور تحت السلطة الفارسية أو الرومانية (البيزنطية) .. فلما جاءتْ ساعة الفتوح .. تفاجأ الفرسُ والبيزنطيون بهؤلاء العرب على غير عادهم مجتمعين منظّمين موحّدين تحت راية واحدة .. بل وعقيدة واحدة تبشيرية منظمة !!

فلما رآهم القائد الفارسي الشهير رستم -في إحدى معاركه مع المسلمين- وقد وقفوا للصلاة صفوفاً موحدةً منسّقةً منظَّمة صاح مدهوشاً ، وهو يظن أن عمر بن الخطاب (وكان وقتئذ خليفة المسلمين) هو الذي قلب أحوال العرب وصنع منهم ذلك الجيش المنظم :

" لقد أكَلَ كَبِدي عُمَر ! علّمَ الكلابَ الآداب !" (١)

---

[١] (راجع مقدمة ابن خلدون ص١٣٣).

وحقاً كان هذا وضع العرب قبل الإسلام ، ومن يتعرَّف تاريخَهم قبل الإسلام تأخذه الدهشةُ مِنْ تفاهة حياتهم الهمجية القائمة على النهب والسلب وقطع الطرقات وغزو بعضهم بعضاً ، وقد يقتتلون سنين طويلة في سبب تافه جداً ، كما جاء في رواية الأخباريين عن حرب " داحس والغبراء" التي دامت أربعين سنةً من أجل فرسَيْن اسْتَبَقَتا ، فسبقَتْ إحداهما الأخرى !!

وحتى عندما فتح العرب المسلمون العراق وفارس ، دخلوا عاصمة الفرس المدائن وجدوا فيها مكتبة عظيمةً حاشدةً ، فأرسلوا إلى الخليفة (عمر) يستفتونه في أمْرِها فجاءهم جوابُه :
" أحرقوها ! فإنه إنْ يكُنْ بها ما يؤذينا في ديننا (عقيدتنا) فقد كفيناكم شرَّها ، وإنْ يَكُنْ بها خير فقد آتانا الله ما هو خير منها (ويقصد القرآن)! " .[1]
وفعلاً لقد أحرقوا هذه المكتبة الفاخرة ، ومثل ذلك ما يُروى عن مكتبة الإسكندرية التي كانت تختزن علوم اليونان وفلسفتهم ..

الخلاصة : إن الشعوب التي كان العرب قد حكَموها وتحكّموا بمصائرها ، كانتْ تتألّم حين ترى أنّ مَنْ كانوا دونهم في مكان سحيق، ومَنْ كانوا موضعَ استهانتهم وازدرائهم لهمجيَّتهم وتَوَحُّشهم، قد أصبحوا سادةً عليهم (٢) ، بل ويُرغمونهم على إحدى اثنتين :
إما أنْ يؤمنوا بما جاؤوهم به من "نظام حياة وتفكير " أو أنْ يدفعوا جزيةً قاهرة ترمز إلى إذلالهم في أوطانهم .. وأصبح المرء منهم وقد صار مواطناً(من الدرجة الثانية) ذليلاً مرذولاً في بلاده و وطنه ، بل و أصبح قسمٌ منهم عبيداً عند هؤلاء السادة المستجدّين على الحضارة والنعيم !! ..وصار يرى أيضاً نساءه وبناته جَوَاريَ (خادمات) ممتلَكات تستعمل للخدمة والمتعة ،يستمتع بهنّ أحد هؤلاء الأعراب الهمَج الجفاة أو يبيعهنّ متى شاء كما تبيع أيَّ متاع أو غَرَضٍ من أغراض بيتك !!

---

[1] (مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٨)

[2] يقول المؤرّخ العربي الشهير ابن الأثير في كتابه الكامل\ ج ١ \ص ٣٢٧ :
" ... أن المسلمين لـمّا قَصَدوا بلاد الفُرْس ما زالتِ الفُرْسُ تقول لهم عند مراسلاتهم ومحاوراتهم في حروبهم (أي في حروب الفتح الإسلامي) كنْتم أقلَّ الأُمَم و أذلّها وأحقرها ؛ والعَرَبُ تُقِرُّ لهم بذلك..".

و ليتَ الأمر وقَفَ عند هذا .. .بل لقد تعدَّاه إلى ما لا يُطاق !

فالعربي منذ القديم وحين كان معزولاً في بواديه وقفاره ، كان (هناك في تلك الأرض القاحلة اليابسة المعزولة عن البشرِ)أنه أعزُّ بني الدنيا ، وأنه البطل الذي دونه أبطال البشرية، وأن قومه هم خير من عرفتْه الأرضُ .. وأنه متى شاءَ فقد كانتْ مشيئتُه .. وأنه ربُّ الشعر وربُّ السَّيْف .. كلُّ هذا كان يعتقده العربيُّ في نفسه ..ولكنْ أين ؟ ! هناك في تلك القِفار المعزولةِ حيث لا جارٌ و لا منافس .

وكيف نستدلُّ على ما كان يشعر به العربيُّ هناك في جزيرة العرب؟ !.. ليس أمامنا سوى الشعر العربي الجاهلي ، فهو خزَّان الوجدان العربي القومي والفردي ..
فلنرجعْ إلى معظم " المعلَّقات" فإنك واجدٌ فيها هذا النَّفَسَ الذي حدَّثْتُك عنه ، وبخاصة قصيدة عمرو بن كلثوم التغلبي الشهيرة :

أبا هند فلا تَعْجَلْ علينا   وأنْظِرْنا نُخَبِّرْكَ اليقينا
بأنا نُورِدُ الراياتِ بيضاً   ونُصْدِرُهنّ حُمْراً قد رَوينا
لنا الدنيا ومَنْ أمسى عليه   ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاةً ظالمين وما ظُلِمنا   ولكنّا سنَبْدأ ظالمينا
متى بلَغَ الفطامَ لنا صبيٌّ   تَخرُّ له الجبابرُ ساجدينا
مَلأْنا البَرَّ حتى ضاقَ عنا   وظهر البحر نملؤه سفينا

وإذن ...فأنتَ مع العربيِّ القديم أمامَ شخصٍ هَمَجيٍّ جلْف لا يعرف من الحضارة ولا الثقافة شيئاً ،ولا هو في تاريخ الأمم بشيء ثم هو فوق ذلك عُنْصري متكبّر متعجرف !

ومع ذلك فقد كان بعضُ عقلائهم يعرفُ مكانتَهُمْ -بين شعوب الأرض - حقَّ المعرفة ، ها هو عمر بن الخطاب يردِّد قولته الشهيرة :

" إنما نحن العرب قوم أذلاّء أعزَّنا الله بالإسلام "

وقال سليمان بن عبد الملك (الخليفة الأموي المعروف) ذات مرة في مجلس مِنْ خواصِّه عن الأعاجم : "عَجِبْتُ لهؤلاء الأعاجم : ملكونا دهراً فلم يحتاجوا إلينا ساعة ، وملكناهم فلمْ نستَغْنِ عنهم ساعة ! "

.. ويعني في تنظيم الشؤون الإدارية والديوانية للإمبراطورية الإسلامية الواسعة .

وسنروي لكم - فيما يأتي - قصصاً حقيقية من التاريخ تعبّر تعبيراً صادقاً عن صورة الوضع الاجتماعي والسياسي في عهد بني أمية :

منها قصة شاعرٍ فارسيّ عاشَ في ذلك العهد ، و اضطهده العرب لأنه كان يعتزُّ بأصله وبقوميته هذا الشاعر اسمه إسماعيل بن يسَار النِّسَائي (بكسر النون . كان أبوه يسار يصنع طعام العرس ويبيعه) ؛ يقول أبو الفرج الأصفهاني :

" دخل إسماعيلُ بنُ يسارٍ على هشام بن عبد الملك في خلافته وهو بالرصافة جالسٌ على برْكة في قصره ، فاستَنْشَده (الخليفةُ) وهو يرى أنه سيُنشده مديحاً له ، فأنشده (اسماعيلُ) قصيدةً يفخر فيها بقومه العجم أولها :

يا ربْعَ رامَةَ بالعلياءِ مِنْ ريمِ هلْ تُرْجِعَنَّ ،إذا حيَّيْتُ تسليمي

حتى إذا انتهى إلى قوله :

إني وجَدِّكَ لا عودي بذي خَوَرٍ عند الحِفاظِ و لا حوضي بمهدومِ
أصْلي كريمٌ ومَجْدي لا يُقاسُ بِهِ إلى لسانٍ كحدِّ السيفِ مسمومِ
مَنْ مِثْلُ كسرى وسابورِ الجنود معاً و الهُرمزان لفخْرٍ أو لتعْظيْمِ
جحَاجِحٍ سادةٍ بُلْجٍ مَرَازِبةٍ جرْدٍ عتاقٍ مساميحٍ مطاعيمِ
أُسْدِ الكتائبِ يومَ الرَّوْعِ إنْ زحفوا وهم أذلّوا ملوكَ الشرق والرومِ
يمشون في حَلَقِ الماذيِّ سابغةً مَشْيَ الضراغمة الأُسْدِ اللهاميْمِ
هنا إنْ تَسْألي تُنْبَي بأنَّ لنا جُرثومةً قهَرَتْ عِزَّ الجراثيمِ

فغَضِبَ هشامٌ ، وصاحَ به :

" يا عاضَّ ... أمه ! (شتَمَه).. عليَّ تفخر ، وإيّايَ تُنْشد قصيدةً تمدح بها نفسَك وأعلاجَ قومك ! غُطُّوه في الماء !." فغطُّوه في البِرْكة حتى كادتْ نفسُه تَخْرُجُ . ثم أمَرَ

بإخراجه وهو بِـَشرٍّ ، ونفاه من وقْته عن الرُّصافة إلى الحجاز "َ. ثم يتابع أبو الفرج فيقول معقّباً على القصة التي رواها :

" وكان(أيْ شاعرنا هذا) مبتلى بالعصبية للعجم (الفرْس) والفخر بهم ، فكان لايزال محروماً مطروداً ! " (الأغاني جـ١٤\ص٤١٠)

انتبه إلى النص السابق .. وانظرْ كيف كان العرب يسمّون جميع الأقوام المجاورين لهم – وفيهم الروم والفرس واليونان والأقباط ... هؤلاء أصحاب الحضارات العريقة أرباب الفلسفة والمنطق – كانوا يسمونهم " الأعجام أو العجم " ..

والأعْجَمُ في اللغة العربية : البهيمةُ من الأنعام التي لا تعرف الكلامَ والإبانة ولا تُفصِح !

ثم إنّ لهؤلاء الغرباء عن العرب لقَبٌ آخرُ فيه من الغمْز والاستهجان والازدراء ما فيه وهو لقب:

" عِلْج " !

والعِلْجُ في العربية :الغليظ الشديد من الرجال –والعِلْجُ أيضاً : حمار الوحش لاستعلاج خَلْقه وغِلَظِه . قال الشاعر :

[يقول الخنى وأبغضُ العُجْم ناطقاً إلى ربي الحمار اليَجُدَّعُ] "عن لسان العرب "

فاليوناني والفارسي والرومي و ... كلُّ واحدٍ من هؤلاء هو عند العربي "أعجمي"لأنه لا يعرف العربية ولا ينطق بها ! .. وهو "علج " لأنه من طينة أخرى وذو ثقافة تخالفه !

ثم انتبه إلى تعقيب أبي الفرج (أبو الفرج الأصفهاني عربي صميم أمويّ النسَب) على الحادثة إذ نَعَتَ إسماعيلَ ابنَ يسار بأنه "كان مُبتَلى بالعصبية للعجم والفخر بهم " ! وكأنَّ اعتزاز الرجل بقوميته –إنْ كان من غير العرب - كان يعدُّ في ذلك المجتمع العربي العنصري) مرضاً مستهجناً؛ولذلك قال أبو الفرج :

" ... فكان (أيْ إسماعيل) لا يزال محروماً مطروداً "

وفي حادثة أخرى يندى لها جبينُ الإسلام و لا يرضى بها .. حَدَثَتْ في عهد حاكم العراق لبني أمية " الحجَّاج بن يوسف الثقفي " ؛ وكان هذا قد أمَرَ خوفاً من الغلط في تلاوة القرآن الكريم -

" أن لا يَؤُمَّ المسلمين في الكوفة إلا عربي ".. وكان إمام الكوفة في ذلك الوقت [يحيى بن وثّاب ت ١٠٣هـ] وهو من غير العرب ، ولكنه تابعيّ من كبار القرّاء (علماء القراءة) (١)

يحدّثنا الزِّرِكلي "عن القصة في كتابه الأعلام" - :

" كان يحيى مِنْ مَوَالي بني أسد ، وهو إمامُ أهل الكوفة في القرآن ، تابعيٌّ ثقةٌ من أكابر القراء والعلماء .

كان يحيى يؤمُّ الناسَ في الصلاة ، فلما أمَرَ الحجَّاجُ "أنْ لا يَؤُمَّ الكوفةَإلا عربي !" قِيْلَ له : اعتزلْ . فبلغَ الحجَّاجَ نبأُ ما جرى ليحيى ، فقال مُستنكراً : " ليس عَنْ مِثْلِ هذا (العالِم) نَهَيْتُ ! " .

فرجَعَ يحيى فصلَّى بهم يوماً واحداً ؛ ثم قال : اطلبوا إماماً غيري ، إنما أردْتُ أن لا تَسْتَذِلُّوني ، فإذا صار الأمرُ إليَّ فلا أَؤُمُّكم ! . " انتهى –

وفي حادثة تاريخية ثالثةوقعتْ في عهد الخلفاء العباسيين الذين كانوا يميلون إلى العناصر غير العربية من فرس وترك وخراسانيين (٢) مما أثار حفيظة الشعب العربي ضدهم و حرَّك نقمته عليهم ، لأنه (الشعب العربي)كان يريد سياسة كسياسة الأمويين العنصرية التي كانت تعز العرب وتميزهم تمييزاً عرقياً عن الشعوب المسلمة الأخرى..

ولذلك حاول بعض السادة من العرب أن يثوروا ، وأن يسقطوا الدولة العباسية من أجل ذلك فقط ، فهذا (نصْر بن شَبْث العُقَيلي)يعلن الثورة على المأمون في منطقة الجزيرة السورية ويجتمع حوله كثير من الأعراب ، و قد ظل يثير الرعب على ضفتي الفرات ثلاث عشرة سنة /

---

[١] - كان معظم التابعين وأئمة اللغة العربية والبيان والقراءة وعلوم القرآن من الموالي– وبخاصة من الخراسانيين و الفرس و الأتراك – (الموالي : هم المسلمون من غير العرب)

[٢] مالَ العباسيون إلى الاستعانة بالموالي من غير العرب للأسباب التالية :

١) إن الثورة العباسية التي جاءت بالعباسيين إلى عرش الخلافة كانت في حقيقتها ثورة الموالي على النظام العنصري الأموي .

٢) كان معظم الخلفاء العباسيين من أمهات غير عربيات (من الجواري) مما جعلهم أقل عنصريةً و تعصباً للعرب .

٣) اعتمد العباسيون على وزراء ورجالات من الخراسانيين والفرس مضطرين لا مُخيَّرين لأنهم وجدوا فيهم عصبيةً قوية لمُلْكهم ، ثم لأن جلبة حركة الفتوحات كانت قد هدأت وأصبحت هذه الإمبراطورية الإسلامية الواسعة بحاجة ماسة إلى خبرات وزراء من شعوب عريقة في الحضارة خبيرة في إدارة شؤون الملوك و الممالك المتحضرّة.

من عام١٩٨-٢٠٩هـ/ و قد حاول المأمون منذ استلامه الخلافة أن يتفاوض معه و أنْ يَستميله ، فلم ينجحْ !
، فوجَّهَ المأمون إليه أخيراً جيشاً خراسانياً بقيادة (طاهر بن الحسين) الخراساني فقضى عليه .
و كان نصر بن شبث عندما سُئِلَ عن سبب ثورته قال :

" إنما هواي في بني العباس ، وإنما أقاتلهم لانحرافهم عن العرب." .

و بديهي أنّ " نصْراً"هذا يمثِّل فيما يقوله ويحمله مشاعر السوادَ الأعظمَ من أبناء العرب ؛ولذلك فقد تكرّر ما يشبه ذلك في عهد الخليفة العباسي المعتضد حين ثار عليه الأميرالعربي الشاعر بكر بن عبد العزيز بن أبي دُلَف العجلي الشيباني في إقليم أذربيجان ، و استعصى على الدولة مدةً حتى تمكَّنَتْ أخيراً من القضاء عليه سنة ٢٨٤ هـ.
و لبكرٍ هذا أبياتٌ من الشعر قالها في هذه المناسبة يأسى فيها لحال العرب في عصره و قد تشعَّثوا في البلاد ، و تفرَّقَت بهم السُّبُل، و زالتْ دولتهم ، و استباحت الأعاجمُ حياضَهم . يقول فيها متوعّداً هؤلاء الأعاجم بأنه سيذلّهم و يدوسهم و سيسحق هذا الدهر الذي مكّنهم: (١)

ألقى الأحبَّةُ بالعراقِ عِصيَّهُمْ   وبقيْتُ نُصْبَ حوادثِ الأيامِ
و تشعَّب العربُ الذين تصدَّعوا   فذَبَبْتُ عن أحسابهم بحسامي
فلأقرعَنَّ صفاةَ دهرٍ نابَهُمْ   قَرْعاً يَهدُّ رواسيَ الأعلامِ
و لأتركَنَّ الواردينَ حياضَهُمْ   بقرارةِ لِمَواطئِ الأقدامِ

وتأكيداً لذلك ..نذكر هذه الأبيات للشاعر العربي الشهير دِعْبل الخُزَاعي [هذا الشاعر كان-في عهد المعتصم وابنه الواثق - على خير حال ، وحَدَثَ أنْ تولّى - مرة- منصباً في دولتهم ،وكانت له ضياعٌ و بساتين " إقطاعاً له " .. إلا أنه بقي ناقماً على بني العباس عموماً لتشيُّعه ، وعلى المعتصم خصوصاً لأن أم المعتصم كانت تركية، ولأنه آثر الأتراك وجعل منهم جند الخلافة]؛

---

[1] (انظر في أخبار بكر و أشعاره : تاريخ الأدب العربي لـ شوقي ضيف – ج٤ العصر العباسي الثاني \ صـ ٤٠٩)

يقول دعبل في هجائه المرير للمعتصم :

ملوكُ بني العبّاسِ في الكتْبِ سبعــةٌ   و لم تأتنا عنْ ثامنٍ لــهُمُ كُتُــبُ
كذلك أهلُ الكهفِ في الكهف سبعةٌ   خيار إذا عُدّوا وثامــنُهُمْ كلــبُ
وإني لأُعْلي كلبَهمْ عنكَ رِفْعَـــةً   لأنكَ ذو ذنــْبٍ وليسَ لهُ ذنْــبُ

ثم يقول :

وهَــمُّكَ تركــيٌّ علــيه مَهَــانــةٌ   فــأنتَ لـــــه أمٌّ ،وأنتَ له أ بُّ
لقد ضاع مُلْــكُ الناسِ إذْ ساسَ مُلْكَهُمْ   "وصيفٌ"و"أشناسٌ" وقد عَظُمَ الكَرْبُ (١)

ومن أشهر الحوادث ما وقع مع بشار بن برد - الشاعر المشهور -وبشارٌ أبوه من طخارستان [٢] و أمه رومية الجنس .

حصل ذات مرة أنْ كانَ بشار يُنشد أحد الأمراء العرب شعراً له ، فدخل عليه أعرابيٌّ وبشَّار على هيئته يُنْشِد ، فسألَ الأعرابيُّ عن الشاعر : " أَ عَربيٌّ هو أمْ مولى (أي مسلم غير عربي) ؟!"

فقيل له : " بل هو مولى ! ..."

فاحتقره الأعرابي ، وقال للحاضرين : - ما للموالي وللشعر؟!

فلما سمعه بشار غضب غضباً شديداً ، وقال للأمير أبي ثور : أتأذن لي فيه (أي أتــأذن لي في الردِّ عليه) ، فأَذنَ له الأمير ، فانطلق بشار بهذه الأبيات الحارقة :

سأُخْبِــرُ فاخِرَ الأعرابِ عنّي   و عنْــه حينَ بــارَزَ للفــخَارِ
أنا ابنُ الأكرمين أباً و أمَّــاً   تنازَعَنــي الــمَرازِبُ منْ طُخَارِ
أُســرْتُ وكمْ تَقَــدَّمَ منْ أسيرٍ   يُــزيِّن وجــهُهُ عَــقْدَ الإســارِ
إذا انْــقلَبَ الزمانُ علا بــعبدٍ   و ســفَّلَ بالبَــطَاريقِ الكِــبارِ

---

[١] "وصيف " و "أشناس" هما قائدان من أبرز القادة الأتراك في عهد المعتصم .

[٢] طخارستان : هو إقليم يقع اليوم في أفغانستان ، نزلت فيه قبائل الطخاريين الشهيرة ثم أسَّستْ -قُبيل الميلاد - إمبراطورية عظيمة في خراسان والسند وشمالي الهند كان اسمها "امبراطورية كوشان "

ثم يتابع بشار فيقول موجِّهاً كلامه إلى ذلك الأعرابي الجلْف :

أَحينَ لبسْتَ بعدَ العُرْيِ خَزّاً   ونادمْتَ الكرامَ على العُقَارِ
و نِلْتَ مِنَ الشَّبارقِ و القلايا   و أُعْطيْتَ البنفسَجَ في الخُمَارِ
تُفاخِرُ يا ابنَ راعيةٍ و راعٍ   بني الأحرارِ؟ حسْبُكَ مِنْ خَسَارِ
لعَمْرُ أبي لقَدْ بُدِّلْتَ عَيْشاً   بعيْشكَ والأمورُ إلى مجاري
وكنْتَ إذا ظَمِئْتَ إلى قَرَاحٍ   شَرِكْتَ الكلْبَ في ذاك الإطارِ
وتَقْضِمُ هامَةَ الجُعْلِ المُصَلَّى   ولا تُعْنى بدُرَّاجِ الدِّيارِ
و تُدْلِجُ للقنافذِ تَدَرِّيْها   و يُنْسِيْكَ المكارمَ صَيْدُ فارِ
وتَغْبِطُ شاويَ الحِرْباءِ حتى   تَروْحَ إليه مِنْ حُبِّ القُتارِ

شرح بعض المفردات الواردة في القصيدة :

المرازب: جمع مرزبان وهو الرئيس أو الوالي من الفرس. و طُخار : هي طخارستان .
البطاريق جمع بطريق : وهو قائد الجيش عند الروم.   الخزّ : الحرير.
العقار : الخمر . الشبارق جمع شبرق : وهو الثوب المقطع. و القلايا : اللحوم المقلية .
الخمار : صداع يعتري شارب الخمر يداوى بشراب البنفسج . القراح : هو الماء العذب النقي الصافي.
الجعْل : خنفساء سوداء تعيش على روث البهائم ، المصلّى : المشويّ .
الدُّرَّاج طائر داجن يربّى في البيوت و يأكله المترفون . تدلج : تسير في الليل . تدَّريها : تختلها لتصيدها بالحيلة.
تغبط : تحسد . القتار : رائحة الشواء.

مثل هذه الحادثة التي وقعت لبشار بن برد : أنْ يأتيَ أعرابيٌّ جلْف حديثُ النعمة ، حديثُ عهْدٍ بالحضارة والنعيم ؛ ثم يبتديء شاعراً كبيراً كبشار بن برد ينتسب إلى شعب أصيل في الحضارة والثقافة .. و يرميه بنظرة ازدراء وتحقير !! فماذا سيكون الرد إلا مثلما قرأْتَ من شعر بشار !

وثمة حوادث أخرى كثيرة جداً .. لعل أهمَّها ما تخلَّفَ عنه شعرٌ رفيع تحفظه ذاكرة الشعر إلى يومنا هذا ..منها ما حدث الشاعر التركي البطل أبي يعقوب الخُرَيمي – وهو تركي من

بلاد الصغد[1] وسُمّي بالخريمي لاختصاصه بمدح عثمان بن خُريم الغطفاني والي أرمينية - هذا الأديب التقي المجاهد ؛ كان يمتلك ناصيتي الشعر و الفروسية والقيادة العسكرية ؛ وقد عَرَفَ عنه الخلفاءُ العباسيون هذا ، فأمَّروه على جيش من جيوش الخلافة على أشرافٍ ممن معه ، فكرهوا ذلك ، ومازالوا بوالي أرمينية (عثمان بن خريم) حتى عَزَله عن قيادة الجيش (لأنه تركي وهم من أشراف العرب) ؛ فنظَمَ أبو يعقوب الخريمي قصيدة يفتخر بآبائه من الصُّغْد ، ويسخر من هؤلاء :

أبِالصُّغْدِ بأسٌ إذْ تُعَيِّرُنا (جُمْلُ) سَفَاهاً ومِنْ أخلاقِ جارتِيَ الجهْلُ ؟!
فإن تفخري يا(جُمْلُ) أو تتَجَمَّلي فلا فخرَ إلا فوقَهُ الدينُ والعقلُ
أرى الناسَ شَرْعاً في الحياة و لا يُرَى لقبرٍ على قبرٍ علاءٌ و لا فَضْلُ
و ما ضَرَّني إنْ لم تلدْني (يُحَابِرٌ) ولم تشْتَمِلْ (جَرْمٌ) عَلَيَّ ولا(عُكْلُ)

شرح المفردات : جمل: يكنّي بها الشاعر عن العرب.
شرْعاً : متساوين لا فضل لأحدهم على الآخر.
(يحابر) و(جرم) و (عكل) : قبائل عربية ، ولكنه اختارها تهكُّماً بغرابة أسمائها وقبح مخارجها .

يقول د. شوقي ضيف عن الخريمي :

" ولقد سلكه بعضُ الباحثين من العرب والمستشرقين في أصحاب نظرية الشعوبية لجريان هذا الفخر على لسانه ، وهو لايستمدُّ فيه من شعوبية ، وإنما يستمدُّ مِنْ نظرية الإسلام التي تسوِّي بين الناس عرباً ومواليَ ؛ فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ."

و أما الدكتور مصطفى الشكعة فيقدم للأبيات السابقة نفسها(ولكنْ بروح عنصرية) بما يلي :

" ولكنَّ الخريمي لا يلبث في " شعوبياته" الأُخَرَ أنْ يجعل فنَّ فخره دفاعاً عن عدوانٍ تصوَّره واقعاً عليه، ويخلع على قصيدته ثوب العدالة والمنطق و المساواة في نطاق العقل والدين ومبدأ أنْ لا فضل لإنسانٍ على آخر لأنَّ هذا منتماه عربي وذاك منتماه أعجمي ، على أنَّ أبيات الخريمي على لؤْم هدفها تبدو جيّدة السَّبْك واقعيةَ المعنى " انتهى

---

[1] إقليم في تركستان يضم مدناً شهيرة كسمرقند وفرغانة وخجند وغيرها من مراكز الثقافة الإسلامية

و شبيهٌ بما حدَثَ لبشار و للخريمي من المعاملة العنصرية ما حدَثَ للشاعر الحمصي الشهير ديك الجن (ديك الجن هو عبد السلام بن رغبان ١٦١-٢٣٥هـ وهو من أب رومي ومن أم فارسية)في بلاد الشام حين تعاطى مع أحد أشراف العرب في بلاد الشام ،فلمس من هذا الرجل جانباً عنصرياً في معاملته للناس ، وأنه يُحَابي ويُقرِّبُ ذوي النسَب العربي على حساب الآخرين من غير العرب ، فغضب لذلك ديكُ الجنّ _ وكان عزيزَ النفْس _ وأدار له ظهره قائلاً لهذا الرجل المتعجرف : [1]

إنْ كانَ عُرْفُكَ مَذْخُوراً لذي سَبَبِ   فاضْمُمْ يَدَيْكَ على حُــرٍّ أخي نسَبِ
أو كُنْتَ وافَــقْتَهُ يوماً على نَــسَبِ   فاضْمُمْ يَــدَيْكَ فــإني لسْتُ بالعربي
إني امرؤٌ ماجدٌ في ذروَتَــيْ شَــرَفٍ   لقيصرٍ و لكِسْرى مَـحْتِدي وأبــي

ومن القصص الطريفة في تاريخ الأدب العربي ، قصة الشاعر الفارسي مهيار الديلمي الذي كان أول عمره مجوسياً ثم سكَنَ الكرخَ في بلاد العراق ، فأسلَمَ مُتَّبعاً مذهبَ أهلِ الكرخ وهو المذهب الشيعي الإثني عشري ، واتّخذ من الشاعر الهاشمي العلوي الشهير "الشريف الرَّضيّ" صديقاً حميماً وأستاذاً في الشعر والحياة ..وهكذا فقد نشأ هذا الشاعر محبّاً للإسلام محبّاً لأهل البيت بل مقدّساً لهم ، ومع ذلك .. فقد حدث ذات مرة أن أحبَّ شاعرنا هذا امرأةً عربيةً اسمها" أمُّ سعد " و يبدو أن أمَّ سعد هذه قد مالتْ إليه ، ولكنها ارتابتْ في أصله ، وخشيَتْ أنْ يكون من غير العرب، فتشعر بمعرَّة حبه لها !

فانطلق لسانه بهذه الأبيات الذائعة الشهيرة التي غنّاها الموسيقار محمد عبد الوهاب :

أُعْجبَتْ بي بين نادي قومهـــا   " أمُّ سعْد " فــمَضَتْ تسْــألُ بــي
لا تخالي نسَــباً يــَخْفِضنــي   أنا مَنْ يُرضــيك عــند النّسَــبِ
قوميَ استولَوا على الدهرِ فتــىً   ومَشَوا فــوقَ رؤوسِ الحُــقُــبِ
عَــمَّموا بالشــمس هاماتِــهِمُ   و بَنوا أبياتــَهُمْ فــي الشُّــهُــبِ
وأبي " كسرى" علا إيــوانُـــهُ   أين في النــاسِ أبٌ مِــثْلُ أبـــي !
قد ورِثْتُ المجدَ عن خــيــرِ أبِ   وقَبَــسْتُ الديــنَ عــن خيرِ نــبي
فجَمَــعْتُ المجــدَ مِنْ أطرافِــهِ   سُــــؤْدَدَ الفُرْسِ ودينَ العَــرَبِ

---

[1] ديوان ديك الجن ص١٥٦ + كـ الشعر والشعراء للشكعة ص ٥٧٨

ويَعُدُّ كثير من النقّاد هذه الأبيات الرائعة في جملة الشعر الشعوبي ، وأنا لا أرى فيها شيئاً من الشعوبية ؛ وليس في الأبيات إلا رجلٌ يفخر بنسبه أمام حبيبته العربية مصرِّحاً لها بأنه – وإنْ لم يكنْ له شرف الانتساب إلى العرب – فهو ذو نسَبٍ أعجمي رفيع فلا تَخشَ أن يغُضَّ ذلك من شأنها إذا هي أحبَّتْه أو تزوجتْه !

ويبدو أن المطلوب من غير العربي إذا كان بينهم أنْ يمحوَ قوميته وأنْ يمحقَ هويته وأن يطأطىء رأسه وأن يَتَصَاغَرَ أمام العرب لأن الحظَّ لم يُسْعِفْه فيكونَ من الأرومة العربية الشريفة ..فإذا لم يفعلْ أو كان مزهوّاً بقومه فهو شعوبي حاقد !

اقرأْ معي ما يقوله د. شوقي ضيف - في تقديمه للأبيات السابقة وهو يتحدث عن الشاعر مهيار الديلمي :

" وكان الشريفُ الرَّضيّ يفْخَرُ بمجده الشريف وعروبته العريقة ؛ فبماذا يفتخر مهيار ؟! لقد اتَّجه بفخره في بواكير حياته نحو قومه الفرس ، وبذلك استحالَ فخْرُهُ شعوبياً ذميماً ، على نحو ما يلقانا في مثل قوله :

" أعجبت بي ... الأبيات "

ثم يقول بعدها : " وقد التقينا بهذا الصوت المنكر في كتاب العصر العباسي الأول " .

وما دمنا مع د .شوقي ضيف فلا بأس أن نستطردَ قليلاً ، لنُطْلعَكَ على عنصرية خفيَّة تبرز لك أحياناً بين سطور كتَّاب العرب (حتى المعاصرين منهم الذين يرفعون الشعارات المناهضة للعنصرية) لنأخذْ على ذلك مثالاً ..حين يجري حديثُ أحدهم(هو العالم الباحث) عن الغزل المذكَّر وعن الشذوذ الجنسي (اللواط)، فيقول د.شوقي ضيف ص٦٥من الجزء ٣ من كتابه الشهير " تاريخ الأدب العربي" :

((ورث المجتمعُ العباسيُّ كلَّ ما كان في المجتمع الساساني الفارسي من أدوات لهو ومجون .. فإذا الفرس المنتصرون بانتصار الثورة العباسية يمضون في مجونهم ويمعن معهم الناس .."

وفي ص ٧٣:

" وقد أشاع هؤلاء المُجَّان آفةً مزرية هي آفة التعلق بالغلمان المرد ")).

واقرأ معي ما كتبه د. مصطفى الشكعة في معرض حديثه عن المجون في المجتمع العباسي:

" و يحاول أبو نواس أن ينال من مروءة صِبْيَة العرب وشبابهم بأن يتغَزَّلَ بغِلْمَانهم ، والمعروف أن عادة الغِلْمَان ليسَتْ معروفةً عند العرب ، فصِبْيَتُهم رجالٌ على صِغَر

أعمارهم ، وإنما هذه الرذيلة القبيحة هي عادةٌ فارسية محضة ، إن أبا نواس يحاول أن يشفي غلته ويروي شعوبيته فيعمد إلى هذا الهدف الذي تصَوَّر أنه من خلاله يكيد العربَ ويعرِّض بهم ، فيقول :

إنما هِمَّتي غزا   لٌ وصهباءُ كالذهبْ
إنما العيْشُ يا أخي   حبٌّ خَشْفٍ مِنَ العربْ
فإذا ما جَمَعْتَهُ   فهو الدِّينُ والحسَبْ

وكأنما أحسَّ أبو نواس بتفاهة فكرته ، وسقم تصوُّره فجاءت أبياته رديئة متهافتة متخاذلة ." اهـ [1]

و نحن نردُّ عليه بالحقائق الآتية :

إذا علمنا أن الشاعر الماجن الشهير " والبةُ بنُ الحبَاب " كان عربياً أصيلَ العُرُوبة ، وأنه -كما أجمعَت المصادرُ - هو مَنْ أضلَّ أبا نواس وساقه في طريق الفحش واللواط .

وفي ذلك يقول **د. شوقي ضيف :** صـ٧٣من(تاريخ الأدب العربي\ ج٣)

"كان أول من اشتهر بالغزل في الغلمان والبة بن الحباب ، وهو يصرِّحُ بذلك تصريحاً في غير مُوَارَبةٍ ولا استحياء ويقال إنه هو الذي يتحمَّل وِزْرَ إفساد أبي نواس ، بل هو في رأينا يتحمَّلُ وِزْرَ العصر كله وما شاع فيه من هذا الغزل المقيت الذي يخنق كرامة الشباب والرجال خنقاً ."

و يقول **د. كمال زكي** في كـ" الحياة الأدبية في البصرة " صـ٥٣٥:

((...أن ابن المعتزّ و(هو الأمير العباسي الكاتب الا ناقد) ينفي عن أبي نواس تهمة اللِّواط كما ذكر في كتابه " طبقات الشعراء " ، و يذكر أن غُلاميَّات الشاعر لم تَكْثُرْ إلا في عهد الخليفة العباسي الأمين لشذوذه))"

والعجيب الغريب أن أستاذاً جامعياً عظيماً كالدكتور الشكعة ، يعد الشذوذ الجنسي عادة ، مع أنه في الواقع العلمي هو انحراف جنسي نفسي ؛ ثم كيف يجوز له وهو العالم المحقِّق المدقّق أن

---

[1] من كتابه (الشعر والشعراء في العصر العباسي) ص ١٧٨

يُسرع في استنتاجه فيرمي تهمة اللّواط على الشعوب الأخرى " ويخصُّ بها الفرْس وكأنهم أهلُها و ينبوعُها " و يُنزّه العرب عنها نزاهةً مطلقةً بدافعٍ من عنصرية صارخة يملؤها التعالي!!

وأنا سأردُّ عليه بما رواه التاريخ والقرآن الكريم :

١- يحدّثنا التاريخ عن الملك اليمني "ذي شُنَاتر الحمْيَريّ " بأنه كان شاذاً جنسياً (لوطياً) ، بل إن من شدَّة شذوذه أنْ ذاع ذلك عنه وشاع ، و ذُكر أنه كان كلما سمع بغُلامٍ نبيهٍ نجيبٍ أرسل يُحضره إلى قصره ثم يغتصبه (جنسياً) ليذله أمام حشود الجنود والناس التي كانت تنتظر خروجه مُفْتضَحاً . وقصتُه مع" ذي نواس" معروفة مشهورة . (١)

٢- قصة "قوم لوط " وهي قصة شعبٍ ساميٍّ (عربيّ)كان يسكن في منطقة "سَدُوم و عَمورة "في الأردن وهم ا لشعب الوحيد في التاريخ الذي كان كله أو جُلُّه منحرفاً جنسياً وقد وَرَدَ في القرآن الكريم عن قوم لوط العرب ما يلي :

" أ إنّكم لتأتون الرجالَ شهوةً من دون النساء " ! ٢

حتى لقد بلغتْ بهم الوقاحة أنهم لما سمعوا بأن رجالاً وسيمين نزلوا على النبي لوط ضيوفاً ، هرع الشعب إلى بيته يريدون أن "يفعلوا الفاحشة " بضيوفه ؛ فخرج إليهم لوطٌ هلِعاً مذعوراً يتذلّل إليهم ويرجوهم أن يكفُّوا عنْ ضيوفه قائلاً لهم :

إنّ"هؤلاء ضيفي فلا تفضحونِ ،واتّقوا الله ولا تُخْزونِ " !، وعَرَضَ عليهم أنْ يفتديَ ضيوفَه بأغلى ما يملك بأ نْ يُقدِّمَ لهم " بناته " بديلاً عنهم لعلّه يردُّهم .." قالَ هؤلاء بناتي إنْ كنْتُم فاعلين"! فماذا كان ردُّهم عليه ؟!

لقد نَهَروه بغضب على عَرْضِه المُتَغَافل المتغابي عن حقيقة ما يُريدون ! قائلين له بصراحةٍ وقحة :

"قالوا: لقد عَلِمْتَ ما لنا في بناتكَ مِنْ حقٍّ ، و إنّكَ لتعلَمُ ما نُريد"!! (٣)

---

[1] (راجع كـ الأغاني ١في أخبار حسّان بن تبَّع).

[2] (سورة النمل-آية ٥٥)

٣ (سورة الحجر آية ٦١و ما بعدها)

٣- أخبار الخليفة الأمين وهو العربي الهاشمي الأبوين والذي كان أصفى الخلفاء العباسيين دماءً ، فأمه هاشمية وهي زبيدة حفيدة أبي جعفر المنصور وأبوه الرشيد (الخليفة العباسي المعروف) ، ومع ذلك فقد كان هو الوحيد بين الخلفاء العباسيين الذي كان منحرفاً جنسياً ، وكان لوطياً شهيراً حتى ذاعتْ فضائحُه في البلاد ، مما دفَعَ بأمه زبيدة والتي كانت تُعدُّه "لعرش الخلافة " أنْ تشتريَ له عشرَات الجواري وأنْ تُرْغمهنّ على التَشَبُّهِ بالغِلْمان في الهيئة و اللباس كي يلهو بهن الأمين (وليُّ عَهْدِ الخلافة) وينشغل عن ملاحقة الغِلْمان . (١)

٤ -وفي عصور متأخّرة من العهد العباسي (القرن الرابع الهجري ما بعده)برز كثيرٌ من الشعراء العرب الذين شرعوا يصرِّحون في شعرهم بالغزَلِ المذكَّر ، ومن أشهر هؤلاء " ابن الحجَّاج " و "ابن سُكّرة الهاشمي " ولا نريد هنا أن نذكر من أشعارهم في ذلك ترفُّعاً و اختصاراً ، فمن أراد فليرجعْ إلى كتاب "يتيمة الدهر للثعالبي" فهنالك يجد نُبَذاً من أخبارهم وأشعارهم !

وختاماً لهذا الموضوع نعود فنؤكِّد : إن هذه الصفة الذميمة " أي اللواط " أو غيره من الانحرافات هي شذوذات إنسانية موجودة في كل زمان وكل مكان لا يختصُّ بها شعب ، ولا ينتفي منها شعب آخر ، وإنما جاء ما أوردْته من أخبار رداً على مقولتين ظالمتين لد . شوقي ضيف و د. الشكعة .

لماذا العربي عنصري ؟

الحقيقة أن هذا السؤال يستوجب النظر و الدراسة والتأمل،وفي نظري أن الأمر يعود إلى شيئين اثنين :

أولهما : أن العربي القديم " الجاهلي " كما قدَّمْنا كان إنساناً معزولاً أو شبهَ معزول في قفاره الواسعة ، وكان العربُ قبائلَ مختلفة متباعدة متنازعة يُغِيْرُ بعضُها على بعضٍ بقصْد السَّلْب

---

[1] (راجع شوقي ضيف – ت. الأدب العربي ج٣ ص ٧٣

والنهب في مجتمعٍ مُقْفلٍ عليهم في كل نواحيه الاجتماعية والفكرية والثقافية (إنْ كان عندهم فكرٌ أو ثقافة..)(١)

وإذن .. مادام العربي الجاهلي معزولاً - كما ذكرنا – وفي مجتمعٍ مقفَلٍ عليه في نشاطه وفي تفكيره ، فهو لذلك كان يعيش مع إخوته من القبائل الأخرى مُتَوهِّمين –بسبب هذه العزلة - بأنهم مدارُ الكون والحياة ، يحسَبون أنفسَهم أعظمَ الناس بل كانوا لا يشعرون بالأمم الأخرى (غافلين عنهم أو متغافلين).. وكلُّ احتكاكٍ لهم مع الفرس والروم كان سطحياً جداً لا يعدو قضاءَ حاجةٍ في تجارة أو غيرها .. ثم يعود العربي إلى خيمته التي كان يراها هي فِناءَ الأرض ويرى قومَه - هؤلاء الرعاة الحفاة الجفاة –هم سادةَ الناس !

فكان العرب إذَنْ لا يختلطون أدنى اختلاط في عمق الحياة الحضارية الرفيعة التي كان يحياها جيرانهم البيزنطيون أو الفرس ، ولا يعرفون بل كانوا لا يُهمُّهُم أنْ يعرفوا- شيئاً عن ثقافات الشعوب الأخرى ولاعن تاريخهم ولا فنونهم ولا عن نُظُمِ الحُكْم عندهم !..

وأمامعركة ذي قار التي لا يفتأ العرب يذكرونها بفخر ويبدؤون ويعيدون في التغني بها ، فهي معركة صغيرة جداً لم يردْ ذكْرُها إلا في كتب "الأخباريين العرب " و الأخباريون" هم - كما هو معروف - رواةٌ لقصص تاريخية غير موثوقة في معظم ما وَرَدَ منها ، وهي لا تعدو أن تكون في معظمها قصصاً تروى في مجالس السَّمَر العربية للتسلية الطريفة و تزجية الوقت !

من هذه القصص ، " معركة ذي قار "

كان النشاط الثقافي عند العرب لا يتجاوز الشعر الجاهلي .. وأما النثر فلنقرأْ له أنموذجاً مِنْ أجود الخطب الجاهلية .. وهي خطبة قسّ بن ساعدة الإيادي الشهيرة التي شهدها النبي في طفولته :

" يا أيها الناس .. اسمعوا وعُوا ، مَنْ عاش مات، ومن ماتَ فات ، وكل ماهو آتٍ آت.

ليلٌ داج و سماء ذات أبراج ..."

و لم يُؤْثَرْ عن العرب لا في قديمهولا حديثهم ما يشير إلى وجود أدب مسرحي شعري ، أو وجود فلسفة أصيلة .. حتى .. حتى الشعر .. لم يتجاوز الشعر العربي أن يكون شعراً فردياً غنائياً محدوداً في فرديته وسطحيته وسذاجة صوره وضحالة محتواه الفكري ..

ذلك على عكس الشعوب الأخرى التي كانت قد سبقته في كل ميدان بأزمان سحيقة القدم ، فاليونان مثلاً هم أرباب الفلسفة والمنطق ، وقد برز أعظم فلاسفتهم ومفكريهم قبل الميلاد بقرون أي قبل الإسلام والعصر الجاهلي الذي نتدارس شعره بأكثر من ألف سنة !!

يقول د. أحمد هبو في كتابه الجامعي"تاريخ العرب قبل الإسلام " \ط. جامعة البعث بحمص \ عن تأريخ هذه الحادثة :

في الصفحات صـ٢٥٣ – ٢٥٦ :

((يختلف المؤرِّخون في تحديد تأريخ معركة ذي قار ؛ فمنهم من يقول بأنها كانتْ يوم ولادة الرسولصلى الله عليه وسلمأو بعد الهجرة إلى المدينة ، وبعضهم يحدِّدها بعد غزوة بدر الكبرى بأشهر ، وآخرون يجعلونها عند مُنْصَرَف الرسول من بدر ؛ ومنهم من يرى أنها حدثَتْ لتمام أربعين سنة من مولد الرسول وهو بمكة بعد مَبْعَثه ، لذلك فإن تحديد تاريخ ثابت لها يبقى في حكم المستحيل .

الأسباب غير المباشرة لهذه الموقعة :

تتحدَّث الرواياتُ العربية عن سوء العلاقات بين كسرى (أبرويز الثاني) والنعمان الثالث (أبي قابوس)، وذلك أن النعمان غَضِبَ على (عديّ بن زيد العبادي) [الذي كان أثيراً عند كسرى وكان ترجمانه إلى العرب وكان أيضاً سبب وصول هذا النعمان إلى حكْم الحيرة من خلال تزكيته عند كسرى] فسجنه ثم قتله .

فأراد ابنه زيد أن ينتقم لأبيه من النعمان ، فأوغَرَ صدرَ كسرى عليه ؛ فكتَبَ كسرى إلى النعمان يأمرُه بالقدوم إليه والمثول بين يديه ، فأدركَ النعمانُ سوءَ مصيره ؛ فحمَلَ سلاحه وكنوزه وهرب يطلب اللجوء عند القبائل العربية المجاورة للحِيْرَة ، فقَصَدَ أولاً أصهارَه (بني طيء) ، ولكنَّ هؤلاء خافوا بطشَ كسرى فأَبَوا عليه ذلك، فأخذ يطوف في قبائل العرب مستجيراً لاجئاً ولا يَجد مُجيراً ، حتى نزل عند ذي قار (موضع مابين الكوفة و واسط في العراق) في بني شيبان وكان زعيمهم آنذاك هانئ بن مسعود الشيباني ، الذي قَبِل أن يستودعه النعمان سلاحه وأشياءه وأولاده ، ثم مضى النعمان في مصيره المجهول إلى كسرى الذي سجنه بعض الوقت ثم قتله .

وأرسل كسرى يطلُبُ ودائعَ النعمان مُكلِّفاً (إياسَ بنَ قبيصة) العربي نائبه على الحيرة بذلك .. فامتنَعَ هانئُ بنُ مسعودٍ ورفض تلبيةَ الطلب رفضاً رقيقاً مُنْكراً أن تكون الودائعُ عنده .

فلما رجعت الأخبار إلى كسرى غضب ، وأرسل مرة أخرى بطلب تأدية أمانات النعمان إليه ، مهدِّداً بالحرب واستئصال بني بكر (قوم بني شيبان) ، وعرض على هانئ بن مسعود أن يختار واحدة من ثلاث : فإما الاستسلام لكسرى يفعل به وبقومه ما يشاء .

أو الرحيل من الديار بعيداً (النفي).

أو فليأذَنْ بالحرب .

فخاف هانئُ بن مسعود من المصير الذي سيلقونه من تجرؤهم على كسرى ، وأشار على قومه بأن يسلِّموا (ودائع النعمان) لكسرى لأن قبيلته عاجزة عن مقاومته .

غير أن رجلاً مِنْ وجوه بني بكر اسمه (حنظلة بن ثعلبة) أصرَّ على وجوب القتال مبيِّناً أنهم إذا استسلموا لكسرى فسيكون مصيرُهم القتل والسبي ، وإن رحلوا وهربوا فسيموتون عطشاً ثم تكون لهم قبيلة تميم بالمرصاد (كان بينهم ثأر) .

واقتنع الجميع بأن لا خيارَ إلا الحرب ، فوزَّع هانئ سلاحَ النُّعمان ودروعَه (٤٠٠ سلاح ودرع) على رجال العرب واستعدوا للقتال . ولكنه ما لبث أن عاد إلى الترَدُّدِ ، وفكَّر في أنْ يأمرَ الناس بالهرب إذ لا طاقةَ لهم بجنود كسرى ، فوثب حنظلةُ ثائراً وهو يقول لهانئ :

" إنما أردْتَ نجاتنا فلمْ تَزِدْ على أنْ ألقَيْتَنا في التَّهْلُكة ! "

ثم وقف في وجه الناس وقطَّع وَضَن الهوادج ، كيلا يستطيع أحدٌ من بني بكرٍ الهروب بنسائه ولذلك سُمِّيَ (مقطِّع الوضن) .

وأما الجيش الفارسي الذي أرسله كسرى ، فكان يتألَّف من ألف فارس بقيادة المرزبان (الهامرز) قائد الميمنة ، وألف فارس آخرين من العجم بقيادة (جلابزين) قائد الميسرة ، وأما عامة الجيش والقسم الرئيسي منه فكان جيشاً عربياً بقيادة حاكم الحيرة (من قبل كسرى) إياس بن قبيصة حاشداً فيه كتائبه العربية الخاصَّة ،مع بعض العرب الموالين للفرس (مثل بني إياد وبني تغلب وقضاعة)!

ومما يذكر أن أسرى بني تميم (حوالي ٢٠٠أسير) لدى بني بكر أبوا إلاّ أنْ يقاتلوا إلى جانب بني بكر (على الرغم مما كان بينهم من العداء) تضامناً مع إخوانهم العرب ؛

كما أن بني إياد الذين كانوا عند بدء المعركة في الجانب الفارسي ، تآمروا مع بني بكر وأفهموهم بأنه متى اشتد القتال فسوف ينقلبون فجأة ضد الفرس ، وسيُحْدِثون فيهم كميناً قاتلاً من وراء الصفوف . وقد تمت المعركة حسب الخطة المرسومة ، فوقع الهامرز قتيلاً في

أول المعركة ، ولما أراد الفرْسُ الانسحابَ خوفاً من العَطَش .. هناك خرجَ الكمينُ عليهم وأطبقَتْ عليهم القواتُ العربية من كلّ جانب ، فقُتِل جلابزين و هُزِمَ الجيشُ في الجانب الفارسي .

تحليل رواية المعركة :

١- هي معركة بلغت من ضآلة الشأْن أنْ لا يذكرَها أحدٌ من المؤرِّخين من الأمم الأخرى سوى الأخباريين العرب .

٢- ما يؤكِّد ضآلتها أنْ لا يستطيع الأخباريون العرب تحديدَ زمنها رغْمَ قرْبِ عهدِها مِنْ زمن الرسول ، فبين كلِّ تقديرٍ و آخر عشرات السنين ، فمرة هي حَدَثَتْ عند مولد النبي ،ومرة هي عند مبعثه وثالثة هي عند منصرفه من بدر ، ورابعة هي بعد بدر بأشهر .

٣- إن المعركة – كما قرأْتَ هي في حقيقتها كانت بين فريقين من العرب : بين بني بكر وحلفائها من العرب (من جانب) و بين عامل كسرى على الحيرة " إياس بن قبيصة " وجيشه العربي مع حلفائه من العرب أيضاً من الجانب الآخر (وليس في الجيش مِنَ الفُرْس سوى ألفين من الفرسان كانوا رديفاً مساعداً لجيش إياس العربي).

٤- تحالف العناصر العربية (بقوّةٍ وتماسكٍ في إحساسهم القومي العربي) ضدَّ ما اعتبروه سيادة فارسية .

٥- الخيانة العربية الفظيعة التي مُنِيَ بها الجيش من الجانب الفارسي ، إذ انفصل عن الجانب الفارسي بنو إياد و غدروا بحلفائهم الفرس في كمين قاتل .

٦- كانت موقعة ذي قار –على ضآلتها وتفاهتها – عظيمة جداً في الوجدان العربي لأنها كانت أول مرة في التاريخ يُخْطِئُ القدرُ فينتصرَ فيه العرب على غيرهم . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم :(هذاأوَّلُ يومٍ انتصفَ فيه العرَبُ من العَجَم) ؛ثم لأنها ولأول مرة وَحَّدَتْ الشعورَ القوميَّ فيهم .

٧- لم يكن لهذه الواقعة أثـرٌ في التاريخ ، و لم يكنْ لها من نتيجة ، وما كانتْ سوى حملةٍ تأديبية فَشِلَتْ وحَسْبُ !

السبب الثاني لعنصرية الإنسان العربي :

مع أنَّ الإسلام لم يقدِّمْ لهذا الشعب العربي الأول (في صدر الإسلام)سوى حضارةٍ أخلاقية فحسْب ، وتشريعٍ حياتي لا أكثر .. ومع ذلك فقد كانَ مثْلُ هذا القدْرِ منَ الحضارة أمراً يفوقُ تَصَوُّرَ العربي القديم الذي كان لا يعلم آنذاك شيئاً عنِ الحضاراتِ العريقة للشعوب الأخرى التي خضَعَتْ لهم بعد الفتوحات، والذين كانوا قد سبقوه بأزمانٍ متطاولةٍ جداً حتى بالنظم الأخلاقية والتشريعية !

ولأن العربي عنصري بطبيعته فقد أقبل بفتوحاته على الشعوب الأخرى وهو يحمل أفكاره الجديدة (الدين الجديد) التي كان يعتقد –ولايزال يعتقد - بأنها الهداية العظمى وأن جميعَ الشعوب جميعَها ليسوا سوى ضُلاّل – يحكم عليهم بهذا وهو لا يعرف شيئاً عن ثقافتهم ولا حضارتهم ولا علومهم ولا فلسفتهم .

هذه الصورة – طبعاً – قد تغيَّرَتْ قليلاً مع مرور الزمن ، فبعد أن استقرت الفتوح ، واحتكَّ العربُ احتكاكاً عميقاً مع الشعوب الأخرى ، عرفوا ما لهذا الشعوب من حكمة وفلسفة وعوم وطب وهندسة .. ولكنهم و رغم هزيمتهم الثقافية أمام ثقافات الشعوب الأخرى ظلوا على ما عُرِفوا عليه من عنصرية ، فكانوا يعتدُّون بلغتهم وآدابهم التي يسندها ويشرِّفها القرآن الكريم عند الشعوب المسلمة الأخرى التي كانت ولأجْل هذا الكتاب المقدَّس تقدِّس لغةَ العرب و تعدُّها أعظم اللغات وأشرفها !

ولكنْ .. هل هذه الحقيقة وهلْ حقاً أنّ اللغةَ العربية هي أسمى اللغات وأعظمها وأقدرها ؟!

(فلنترك جانباً قداسةَ اللغة العربية!)

لم تكن اللغةُ العربية بنفسِها في عهدٍ من عهود ها لغة للابتكار العلمي ولا للفلسفة ، وكل ما أنتَ واجدُه من ذلك كان ثمرةً لجهود المترجمين الذين ترجموا عن اليونان والهند والفرس كتبهم وثقافتهم ، وهي إلى اليوم في مناحي العلم لغة للترجمة والشرح لا للتأليف المبتدع الخلاّق ..

وارجع إلى كل العلوم قاطبة (بداهةً ماعدا علوم اللغة العربية والقرآن) فقد كانت جميع المصطلحات فيها إما مترجمة ترجمة حرفية أو شبه حرفية أو أنها اختيرت لتقوم مقام الكلمة الأجنبية الأصلية في علم من العلوم .

وإنّ العبقرية التي تُوصف بها اللغة العربية لا تعد أن تكون تتويجاً روحياً لا ينع تها بذلك عن سائر اللغات إلا مَنْ آمَنَ بالإسلام ديناً.. لماذا ؟

لأنها ببساطة لغة القرآن الكريم ، والقرآن عند جمهور المسلمين هو " معجزة لغوية بيانية " و هذا اعتقادٌ راسخ عندهم لا يَصحُّ من دونه إسلامهم .

و نحن لا نُجادل في عظَمَة البلاغة القرآنية ، بل نحن نعترف بها ونُجِلُّها؛ و لكننا نسرع فنوضّح أن القرآن الكريم هو كتابٌ عربي اللغة، وهو معجزةٌ لغوية بيانية ضِمْنَ هذه اللغة عينِها ،وهو معجزٌ لأصحاب هذه اللغة .
فالقرآن إذنْ هو المُعْجِز (بأسلوبه ونظمه) لا اللغة العربية كما يختلط في أذهان بعضنا !!
ولنضربْ لهذا المعنى مثلاً : هذا طينٌ صلْصَالٌ بين أيدينا ،جَعَلْناه نصْفين : فنِصْفٌ أعطيناه لخزّاف بسيطٍ فَصَيّره جِرَاراً ؛ و النصفُ الآخرُ تَنَاوَلَهُ مَثّالٌ فنّان فأخْرَجَهُ آياتٍ مِنَ الفنّ الباهر!
و الطّين –كما ترى– هو الطينُ نفسُه ..و لكن اختلَفَ الصَّانع !

يقول الدكتور طه حسينعميد الأدب العربي في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر " ص١٠٧\ط .عام ١٩٣٨:
" إنّ حاجتنا إلى اللغات الأجنبية أشدّ جداً من حاجة الأمم الأوربية الراقية لسببٍ يسيرٍ هو أن لغتنا العربية لا تزال بعيدةً كلَّ البعْد عن أنْ تنهض بحاجات الثقافة الحديثة و التعليم الحديث ..وهي الآن أغنى منها في أول هذا القرن، ولكنّ فقرَها لا يزال شديداً ، و لعلّه يبلغ من الشدّة أنْ يكون مُخْزِياً للشعوب التي تتكلّمها و التي تزعم لنفسها الحضارة والمجد ." انتهى.

السبب الثالث :

يتغَنَّى العرب منذ القديم بشعرهم ويرون أنهم وحدهم مِنْ بين جميع الأمم هم المخصوصون بأرقى الشعر والأدب ..ولكنْ .. هل حقّاً هذا هو واقع الشعر العربي والأدب العربي بين أمم الله !!
طبعاً إن الحقيقةَ المُرَّة هي غير ذلك تماماً ، والذي يدْرُس علْمَ اللغات المقارن والأدب المقارن سيضحكُ منا مِلْءَ شِدْقَيه ، وسيرى أننا نقف في أدنى شعوب الأرض مرتبةً حتى ..حتى في الشعر والأدب !!

وسيجد أن الشعر العربي- في تاريخه الطويل -كان في معظمه شعراً غنائياً فردياً ضحلاً !

فالعرب لم يعرفوا في تاريخهم كلِّه الشعرَ الملحميّ و لا المسرحيَّ ولا الرواية ولا المسرح ، وكل ما جاؤوا به – في هذا الباب -حتى في عصرنا الحديث لا يزال يعدُّ محاولاتٍ هزيلةً إذا ما قِيْسَتْ بالأدب العالمي .

وأدبنا العربي إلى يومنا هذا لا يزال يتخبَّط في ميادين التقليد الأعرج للأدب الغربي !

عنصرية الإنسان العربي اليوم :

وأما الإنسان العربي اليوم – في عصرنا الحديث – فهو في عنصريةٍ أسوأ من تلك التي عند العربي القديم بكثير ، والسبب في ذلك هو جهْلُهُ العميق بحقيقة تاريخه ؛ فلعلَّ عربيَّ الأمسِ كان يعرف – على الأقلّ بينه وبين نفسه – أنه مِنْ أدنى شعوب الأرض حضارةً ، وكان يسْتَشْعر- في أغوارِ نفْسه- إحباطَهُ و قُصُوره وضَعْفَهُ لأنه قريب العهد بتاريخه في الجاهلية .

أما عربي اليومْ فقد ضَلَّلَتْه الكتبُ المدرسيةُ وخَدَعَتْهُ الخُطَبُ الدينية لوعَّاظنا ومشايخنا، إذ إنّ هذه الكتب والخطَب هي انتقائيةٌ فيما تقدِّمه للسامع والقارئ من إيجابيات مزوَّقة في تاريخ العرب ، بل وتأتي على القصة الصغيرة والانتصار البسيط فتخلق منه – لأهداف تربوية وعْظية – أسطورةً عظيمةً تبقى في ذهن هذا التلميذ الناشئ ، أو لا يبقى منها سوى ما تتركه في نفسه من ظلالٍ بالشعور بالتفوُّق والعظَمَة والنبوغ بين شعوب الأرض ..وهذا تماماً ما هو مطلوب منها !

فمثلاً : تقدِّم لنا الكتبُ المدرسية والدينية والخطب المسجديةمعركةَ بدرٍ الكبرى على أنها معركة فاصلة عظيمة وأنها نصر كبير وفوز عظيم ، وتُروى القصة وكأنها حدَثٌ من أعظم أحداث التاريخ كله .. والواقع أنها معركةٌ بسيطةٌ جداً وقعَتْ بين قريش وبين مسلمي يثرب ؛وكان عدد المشركين فيها من قريش لا يتجاوز الألف رجُل، في حين كان تعداد المسلمين لا يتجاوز ٣١٧رجل تقريباً

(هذه الأعداد هي من تقديرات الأخباريين العرب التي تعوَّدَتْ المبالغة في تقدير الأعداد .. ولاسيما إذا كان يُراد من ذلك أن تبدو القلة المؤمنة منصورةً على الكثرة الكافرة ...)

وهكذا فهذه المعركة العظيمة لم تكنْ سوى معركة بسيطة جداً بين ضيعتين (قريتين) ، لم يَسْمَعْ بها أحدٌ من الشعوب الأخرى ، ولا أرَّخَ لها أحَدٌ مِنْ غير هذين الفريقين المتصارعَيْن؛

فهي عظيمة فعلاً .. ولكنْ في وجْدان المسلمين فقط ..لأنها أول نصر للمسلمين على أعدائهم !

و لأنها أول خطوة جريئة في إثبات وجود الدعوة الإسلامية وقدرتها على البقاء بل والتوسُّع !

و أمثلة أخرى نضربها :

١- تتجنَّب هذه الكتب المدرسية و الوعْظية مثالبَ التاريخ العربي تجنُّباً ظاهراً ، فلا تذكر لك مثلاً موضوعَ إحراق العرب الفاتحين لمكتبة المدائن الفارسية ولا لمكتبة الإسكندرية .. لماذا ؟ لأن ذلك سيجعل منهم همَجاً مدمِّرين للحضارات ، وستعْلَقُ بهم التهمةُ التي رَمَوها هم زوراً وبهتاناً على غيرهم من الفاتحين وبخاصة في قصة دخول هولاكو مدينة بغداد وكذْبة إحراقه لمكتباتها.

٢- وتتجنَّب مثلاً أنْ تذكر خَبَرَ المُصَالحة التي تمَّتْ بين الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب وبين الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان؛ وهي أن معاوية صالحَ الحسَنَ على أن يتنازل له هذا عن الخلافة بالشروط التالية :

" ولما رأى الحسنُ بنُ عليٍّ تفرُّقَ جيشه عليه مَقتَهُمْ ، وكتَبَ عند ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان - . . . - يُرَاوِدُه على الصلح بينهما، فبعَثَ إليه معاويةُ (عبدَ الله بن عامر وعبدَ الرحمن بن سمرة)فقدما عليه الكوفَةَ فبَذَلا له ما أراد مِنَ الأموال ، فاشْتَرَطَ (الحسنُ)أنْ يأخذ مِنْ بيت مالِ الكوفةِ خمسةَ آلافِ ألفِ درهم (٥مليون درهم)،وأنْ يكون خَرَاجُ "دارا بجرد" له،وأنْ لا يُسَبَّ عليٌّ وهو يسمع ! " (١)

وأما رواية ابن الأثير في كتابه الكامل ١ج: ١٣ صـ ٢٧١+ ٢٧٢ :

"فلما رأى الحسَنُ تفرُّقَ الأمْرِ عنه ،كتَب إلى معاوية وذكَرَ شُروطاً ،وقال له : " إنْ أنتَ أعطيتني هذا فأنا سميعٌ لك مطيعٌ ، وعليك أن تَفيَ لي به .."

وكان الذي طَلَبَه الحسَنُ من معاوية أنْ يُعْطيَه ما في بيت مال الكوفة ومبلغه خمسة آلاف ،وخَرَاجُ (دارا بجرد) بلاد فارس ، وأنْ لا يَشْتُمَ أباه عَلِياًّ؛ فلم يُجِبْهُ إلى الكَفِّ عَنْ

---

[1] البداية والنهاية ج: ٨ ص: ١٤

شَتْم عليٍّ ، فطلب أنْ لا يشتم وهو يسْمَع ! ؛ فأجابه معاوية إلى ذلك ،ثمّ لَمْ يَفِ له به أيضاً.!"

فانظرْ إلى هذين الرجُلَين ..أيهما أخسُّ فيما تصالحا عليه ..آلـّذي رضيَ أن يُشْتَمَ أبوه على المنابر على أنْ ينال أجْرَهُ منَ الأموا لَ الطائلةَ منْ "بيت مال المسلمين " أم الخليفةُ الصحابيّ الذي وَعَدَ و عاهَدَ ثمّ لم يَفِ بوعْده و عَهْده ؟!!

ولنضرب أمثلةً أخرى :

تذكر الكتُبُ المدرسية وخطباءُ المساجد ، ويتغنَّون بفتح الأندلس مثلاً ، ولكنَّهم لا يذكرون للسامع أو القارئ بأن الجيش الفاتح للأندلس كان كلُّه من البربر (في قيادته وجنوده)تحت إمْرة الفاتح الشهير طارق بن زياد البربري ، وموسى بن نصير (وهو من موالي الشام أي من غير العرب أيضاً) ..

وتذكُرُ الكتُبُ وتتمَجَّدُ ببطولة العرَب و نجْدتهم في " معركة عمورية " مثلاً ، ولكنَّهم لا يذكرون أن الجيش الذي فتحهَا كان جُلُّه تركياً و بقيادةِ مجموعةٍ من ضبَّاط أتراك أيضاً على رأسهم الأفشين و أشناس و إيتاخ و عَمْرو الفَرْغاني و الحارث السمرقندي و وَصيْف و مالك بن كيدر و غيرهم...

- فأين البطولة و النجدة العربية هنا ؟! [١]

ونضرب مثلاً آخر فيما تذكُرُه الكتُبُ المدرسية عن الفتح الإسلامي الأموي لبلاد ما وراء النهر (تركستان) مِنْ غير أنْ تذكرَ أنّ قِسْماً كبيراً من الجيش الفاتح كان من الخراسانيين والهياطلة الأتراك الذين أسلموا وساهموا مع العرب المسلمين ضد أقربائهم غيرِ المسلمين .. حتى إن حاكم سمرقند (غوزوك خان) عندما كان المسلمون يحاولون فتْحَها خاطَبَ قتيبةَ بنَ مسلم قائلاً : " إنما أنتَ تُقاتلني بقومي و أهل بيتي ، فاخْرُجْ إليَّ بقومك العرب "!..

فغضِبَ قتيبةُ غضباً شديداً وقدَّم القسم العربيَّ من الجيش للقتال رداً عليه . (عن تاريخ الطبري ج٦\ص٤٧٤ جاء فيه:

---

[١] راجع الطبري ج٥\ص٢٣٦ -٢٤٦ \\و الكامل ج٦\ص٤٠وما بعدها)

"...ووضع قتيبة عليهم المجانيق فرماهم بها وهو في ذلك يقاتلهم لا يقلع عنهم، وناصَحَهُ مَنْ معه من أهل بخارى وأهل خوارزم فقاتلوا معه قتالاً شديداً و بذلوا أنفسهم ؛ فأرسل إليه غوزك : إنما تقاتلني بإخوتي وأهل بيتي فأخرج إليَّ في العرب")

فلو كان مؤلفو هذه الكتب العربية والمناهج الثقافية والتدريسية العربية صادقين فيما يقدِّمونه مِنْ مادة علميةٍ تاريخية، لعَرَفَ عربيٌّ اليوم المتعجرف أنَّ ما يُسَمّى حضارته العربية (التي يُفاخر بها)

وأن الهالة العُظمى التي تحيط بـ " تراث العربوعلوم العرب وعلماء العرب " ليستْ سوى أكذوبة كبيرة ، وأنَّ معظمَ مَنْ كان يحسَبُهم هو أنهم مِنْ أجداده مِنَ الفلاسفة والعلماء والمحدّثين والمؤرّخين هم حقاً أشخاصٌ مسلمون ولكنَّهم ليسوا عرباً ، بل كانوا من الفرس والخراسانيين والأتراك والروم والإسبان ! ولكنهم كتبوا نتاج عبقريتهم بالعربية لغة "الدين والدولة " آنذاك !

(جاء في كتاب مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٢\و ٤٨٣\تحت العنوان التالي :

٣٦- فصْل في أنّ حَمَلَة العِلْم في الإسلام أكثرُهُم من العَجَم)

((من الغريب الواقع أنَّ حَمَلَةَ العِلْم في الملّة الإسلامية أكثرُهُم العجم -لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر ؛ وإنْ كان منهم العَرَبي في نسْبته فهو عجَميّ في لغته ومَرْباه ومَشْيخته - مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي-؟!

والسبب في ذلك أن الملّة في أولها لم يكُنْ فيها عِلْمٌ ولا صناعةٌ لمقتضى أحوال السَّذَاجة والبداوة، وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجالُ ينقلونها في صدورهم ،وقد عرفوا مأخذَها من الكتاب والسُّنّة

.بما تلَقَّوهُ من صاحب الشرْع وأصحابه، والقوم يومئذ عَرَبٌ لم يعرفوا أمْرَ التعليم والتأليف والتدوين ،ولا دُفعوا إليه ولا دعتْهم إليه حاجةٌ ، وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين وكانوا يُسمُّون المختصين بحَمْل ذلك ونقْله (القرَّاء) أي الذين يقرؤون الكتاب وليسوا أميين؛ لأن الأمية يومئذ صفةٌ عامّةٌ في الصحابة .بما كانوا عَرَباً، فقيل لحملة القرآن يومئذ قراء إشارة إلى هذا فهم قرّاء لكتاب الله والسنة المأثورة ....فلما بَعُدَ النقْلُ مِنْ لدُنْ دولةِ الرشيد فما بعد - احتيج إلى وضْع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه ، ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه .....

وفسَدَ مع ذلك اللسانُ فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية ،وصارت العلومُ الشرعيةُ كلُّها ملَكَات في الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس ،واحتاجتْ إلى علوم أخرى وهي الوسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذبّ عن العقائد الإيمانية بالأدلة لكثرة البِدَع والإلحاد ؛ فصارت هذه العلوم كلها علوماً ذات ملَكَات محتاجة إلى التعليم، فاندرجتْ في جملة الصَّنَائع ، وقد كنا قدّمنا أن الصنائع من مُنْتَحَل الحضَر وأن العَرَب أبعدُ الناس عنها ، فصارت العلوم لذلك حضرية، وبَعُدَ عنها العربُ وعن سُوقها، والحضرُ لذلك العهد هم العجَم أو مَنْ هم في معناهم مِنَ الموالي وأهل الحواضر (الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحِرَف) لأنهم أقوَمُ على ذلك للحضارة الرّاسخة فيهم منذ دولة الفرْس؛

فكان صاحبُ صناعة النحو سيبويه والفارسي مِنْ بَعْده والزجَّاج مِنْ بعْدهما وكلُّهم عجم في أنسابهم، وإنما رُبوا في اللسان العربي فاكْتَسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصَيَّروه قوانينَ وفنّاً لمن بَعْدَهم ..!

وكذا حَمَلَة الحديث الذين حفظوه عَنْ أهل الإسلام أكثرهم عجم (أو مستعجمون باللغة والمربي) !..

وكان علماءِ أصول الفقه كلُّهم عجماً كما يُعْرَف ..

وكذا حمَلَة علْم الكلام .. وكذا أكثر المفسرين ؛ ولم يَقُمْ بحفظ العلْم وتدوينه إلا الأعاجم وظَهَرَ مِصْداق قوله صلى الله عليه وسلم : " لو تعَلَّقَ العلْمُ بأكناف السَّماء لنَالَهُ قومٌ مِنْ أهل فارس"...

فهذا الذي قرَّرناه هو السبب في أن حملة الشريعة أو عامتهم من العجم ؛

وأما العلوم العقلية أيضاً فلم تظهر في الملة إلا بعد أن تميَّز حمَلَةُ العِلْم ومؤلّفوه واستقرّ العلمُ كلُّه صناعةً، فاختَصَّتْ بالعَجَم وتَرَكَها العَرَبُ وانصرفوا عَن انتحالها ؛ فلم يَحْمِلْها إلا المعرَّبون من العَجَم شأْنَ الصّنائع كما قلناه أولاً، فلم يزلْ ذلك في الأمصار ما دامتِ الحضارةُ في العَجَم وبلادهم من العراق و خُراسان و ما وراء النهر .)) انتهى

وللتأكيد على هذا الجانب ، سأمرُّ على **أهم الشخصيات التاريخية والعلمية البارزة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية** ذاكراً أصولَ هؤلاء الأفذاذ حتى تتوضَّح الصورةُ، ويعلم كلُّ عربي أنه لولا جهود العظماء من الشعوب الإسلامية غير العربية لما كان هنالك ما يستحقُّ أن يُذْكر في تاريخ حضارته !!

الفلسفة : وأهم أقطاب الفلسفة العربية الإسلامية هم :

١) الفارابي : وهو تركي من فاراب بلدة في تركستان "ماوراء النهر ".
٢) ابن سينا : ولد في قرية قرب بخارى " وهو مختلَفٌ في أصله إما تركي أو فارسي.
٣) أبو الريحان البيروني : من بيرون في بلاد خوارزم تركي الأصل فارسي الثقافة .
٤) أبوحامد الغزالي: خراساني من طوس (مدينة مشهد حالياً) في الشمال الشرقي من إيران .
٥) ابن رشد : إسباني الأصل من أسرة كانت يهودية ثم أسلمت .
٦) ابن باجّة : إسباني من أسرة مسيحية أسلمت .
٧) ابن حزم الأندلسي : (من أصلٍ فارسي) .

في العلوم الرياضية والحساب والهندسة :

١) أولاد موسى بن شاكر : من الموالي من غير العرب .
٢) البيروني : وقد ورد ذكره .
٣) أبوبكر الخوارزمي :(تركي)محمد بن موسى صاحب الجبر والمقابلة مؤسس علم الجبر واللغاريتمات .
٤) الحاسب الكرْخي : من الموالي.
٥) ابن الهيثم البصري : وهو من الموالي .
٦) أبو الوفاء البوزجاني : عالم بالهندسة ، وصديق أبي حيّان التوحيدي وكلاهما فارسي .

في علم الفيزياء و الكيمياء و الميكانيك :

١) أولاد موسى بن شاكر (من الموالي).
٢) جابر بن حيان (خراساني).
٣) عباس بن فرناس (إسباني).أول من حاول الطيران بجناحين .

٤) أبو نصر الجوهري (تركي من مدينة فاراب بتركستان)وقد حاول الطيران أيضاً.

في علـــم الهـــيئـــة (علم الفلك) :

١) قسطا بن لوقا (يوناني الأصل)، عالم بالطب و الفلك و الرياضيات و الموسيقا.

٢) البَتّاني محمد بن جابر بن سنان الحرّاني .(أصله من صابئة حران).

٣) أبو المعشر الفلكي :من بلخ (مدينة في أفغانستان اليوم) وهو من أصلٍ تركي أو إيراني.

٤) أبو علي المنجّم : (فارسي) كان مجوسياً و أسلم على يد الخليفة المأمون ، وكان من خاصَّته .وهو رأس " آل المنجّم " وكان من عقبه كثير من العلماء و الأدباء ؛وقد كان له مرصدان أحدهما ببغداد و الآخر على جبل قاسيون بدمشق .

٥) عمر الخيام : (خراساني من مدينة طوس) فلكي و عالم رياضي و شاعر عظيم.

٦) البيروني (فارسي).

٧) نصير الدين الطوسي : (خراساني) كان المستشار المقرَّب إلى هولاكو خان.

٨) أولوغ بك بن شاهروخ : (تركي)وهو حفيد تيمورلنك (*)، وكذلك ابنه علاء الدين الذي تابع مسيرة أبيه في علم الفلك .

٩) القُوْشَجي : (تركي) و كان تلميذاً للأمير أولوغ بك في علم الفلك فلما مات أستاذه خلفه في مرصده و أكمل عمله .

(*) جاء في كتاب "تاريخ الترك ... " للأستاذ و. بارتولد \ صـ٢٥٥:

" لم يكن أولوغ بك يقتصر -مثل جدّه تيمور - على لقاء العلماء ، بل كان هو بنفسه يشتغل بالعلم عامةً وبعلم الهيئة (علم الفلك) خاصَّةً ، وهو من هذه الناحية نموذج نادر في التاريخ الإسلامي للحاكم العالِم ، وكان معاصروه يشبِّهونه –في هذا الباب- بالإسكندر المكدوني تلميذ أرسطو، أي أنهم لم يكونوا يجدون له شبيهاً في التاريخ الإسلامي ، وتعدُّ كُتُب أولوغ بك –وكتب خلفائه الأقربين- في علم الهيئة هي آخر ما وصل إليه المسلمون في موضوعها " !!

في الطب ومن أشهر هؤلاء :

١) أبو بكر محمد بن زكريا الرازي :(فارسي)

جاء في كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج: ١ ص: ٤١٩ ما يلي :

"وكان أكثر مُقَام الرازي ببلاد العجم وذلك لكونها موطنه وموطن أهله وأخيه؛ وخدم بصناعة الطب الأكابر من ملوك العَجَم ،وصَنَّف هنالك كتباً كثيرة في الطب وغيره ،وصنَّفَ كتابه" المنصوري" للمنصور بن إسماعيل بن خاقان صاحب خراسان وما وراء النهر ؛ وكذلك صنف كتابه الذي سماه" الملوكي" لعلي ابن صاحب طبرستان .. وكان الرازي أيضاً مشتغلاً بالعلوم الحِكْمية(الفلسفة) فائقاً فيها ، وله في ذلك تصانيف كثيرة يُسْتَدلّ بها على جودة معرفته وارتفاع منزلته.

٢) يوحنا بن ماسويه مسيحي سرياني .

٣) ابن سينا .مرّ ذكره

جاء في كـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج: ١ ص: ٤٣٧

" هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا وهو أن كان أشهر من أن يذكر ...ولذلك أننا نقتصر من ذلك على ما قد ذكره هو عن نفسه ... قال الشيخ الرئيس :

" إن أبي كان رجلاً من أهل (بلْخ)وانتقل منها إلى (بخارى) في أيام نوحٍ بن منصور(الساماني) واشتغل بالتصرف وتولى العمل في أثناء أيامه بقرية يُقَال لها (خرْميثن) من ضياع بُخارى ... وبقربها قرية يقال لها(أفْشِنة) وتزوج أبي منها بوالدتي وقطَنَ بها وسكن ووُلِدْتُ منها بها ، ثم وَلَدَتْ أخي ثم انتقلنا إلى بخارى ... "

٤) ابن رشد: (إسباني)

٥) ابن النفيس :دمشقي المولد والنشأة ، تركي الأصل من بلدة قَرْش في بلاد تركستان .

٦) ثابت بن قرّة :(صابئيّ من حَرَّان) من الصابئة .و كذلك كان ابنه سنان طبيباً متميزاً.

٧) حنين بن اسحاق العبَادي :(عربي مسيحي كان مترجماً لكتب جالينوس اليوناني).

٨) جيورجيوس بن جبرائيل.

٩) بختيشوع بن جبرائيل (سرياني مسيحي).ومعنى "بخْت يشوع" في اللغة السريانية : عبد المسيح.

١٠) جبرائيل بن بختيشوع .

١١) يوحنا بن بختيشوع .

١٢) يحيى بن اسحاق : (إسباني) كان أبوه اسحاق نصرانياً فأسلم .كان طبيب عبد الرحمن الناصر. عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج: ١ ص: ٥٠١

١٣) أبو القاسم الزهراوي خلف بن عباس (إسباني من مدينة الزهراء)كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة جيد العلاج ؛ وله تصانيف مشهورة في صناعة الطب، وأفضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوي ،ولخلف بن عباس الزهراوي من الكتب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف وهو أكبر تصانيفه وأشهرها وهو كتاب تام في معناه .

١٤) ابن بكلارش (إسباني يهودي)

كان يهودياً من أكابر علماء الأندلس في صناعة الطب وله خبرة واعتناء بالغ بالأدوية المفردوخدم بصناعة الطب بني هود . ولابن بكلارش من الكتب كتاب المجدولة في الأدوية المفردة.

١٥) ضياء الدين ابن البيطار:إسباني من أهل مدينة مالقة) توفي سنة ١٢٤٨م. طبيب عظيم و عالم بالأعشاب ، رحل إلى بلاد اليونان و تعلم منهم .

علوم الحديث :

أهم وأعظم أقطاب هذا العلم هم من الأتراك والخراسانيين (والخراسانيون هم مزيج من الأتراك والإيرانيين) :

١) البخاري (محمد بن اسماعيل) إيراني طاجيكي من بخارى.

٢) الإمام مسلم (مسلم بن الحجاج النيسابوري) : خراساني.

٣) الإمام الترمذي (من ترمذ قرية في بلاد تركستان)

٤) الإمام النَّسائي :(من نسا مدينة في تركمانستان وهي عشق آباد حالياً)

٥) ابن ماجة وأبو داود وأبو حاتم البستي والبزّار و أبو نعيم كلهم من غير العرب .

علوم القرآن :

وكذلك فإن أعظم من عمل هذا المجال هم أعلام من غير العرب(فرس وأتراك) مثل :

١- الزمخشري (تركي) ٢- الجاحظ (فارسي و قيل حبشي) ٣- النظَّام (فارسي)
٤ – الزركشي (تركي) ٥ - الو احدي (فارسي) ٦- البيضاوي (فارسي)
٧- النَسَفي (تركي) ٨- أبو السُّعود (تركي). ٩- الطبري (فارسي)
١٠- أبو الليث السمرقندي (تركي).

علم الكلام :

وهو علم أقرب ما يكون إلى علم المنطق ، ويدرس أصول الجدل وفنونه وكان أبرز أصحابه هم المعتزلة ، وأهمهم :

١) واصل بن عطاء (من الموالي).
٢) عمرو بن عبيد : (من الموالي) من كابل (في أفغانستان).
٣) أبو الهذيل العلاّف (فارسي).
٤) الجهْم بن صفوان الراسبي ولاءً : تركي الأصل من سمرقند . صاحب فرقة الجهمية.
٥) النظَّام (فارسي) .وهو ابن أخت أبي الهذيل العلاف.
٦) بشْر بن غياث المـُرَيسي العدَوي ولاءً (مولى آل زيد بن الخطاب) من رؤوس المتكلمين والمعتزلة .
٧) الجاحظ (فارسي وقيل إنه من أصول زنجية).
٨) أبو علي الجُبائي : رأس من رؤوس المعتزلة في البصرة .(فارسي) من مدينة جبى في خوزستان .
٩) أبو منصور الماتريدي : (تركي) و هو علمٌ من أعلام المفكّرين و المفسّرين (١).
١٠) القاضي عبد الجبار الهمذاني الأسدأبادي (فارسي) العالم المعتزلي الشهير .و أحد كبار فقهاء الشافعية.
١١) ابن الاخشيد : أحمد بن علي بن معجور الأخشيد (تركي) .
١٢) العلاّمة أبو الحسن علي بن عيسى الرمَّاني النحوي المعتزلي (تركي).

---

[١] من " ماتريد " وهي مدينة في بلاد ما وراء النهر تابعة لسمرقند (في تركستان).

١٣) الإسكافي (تركي) وهو العلامة أبو جعفر محمد بن عبد الله السمرقندي ثم الإسكافي المتكلّم وكان أعجوبة في الذكاء وسعة المعرفة مع الدين والتصَوُّن والنزاهة.

برع في الكلام وبقي المعتصم معجباً به كثيرًا ،فأدناه وأجزل عطاءه ؛ وكان إذا ناظر أصغى إليه وسكَتَ الحاضرون ثم ينظر المعتصم إليهم ويقول من يذهب عن هذا الكلام والبيان. (١)

علوم اللغة والنحو :

١- أبو عبيدة النحْويّ " مَعْمَر بن المثنَّى " فارسي الأصل شعوبي (يبغض العرب).إمام من أئمّة اللغة و الأدب من حفاظ الحديث ؛ قال عنه الجاحظ :" لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه".

٢- أبو عمْرو عيسى بن عمر الثقفيّ ولاءً (من الموالي) علَمٌ من مؤسِّسي علم النحو و أحد علماء القراءة (قراءة القرآن) . أخذ عنه الخليل بن أحمد الفراهيدي ؛ ولما بلغه نبأ موته قال :

ذَهَبَ النحْوُ جميعاً كلّهُ   غيرَ ما أحْدَثَ عيسى بنُ عمرْ

٣- أبو عمرو بن العلاء " عربي ".

٤- أبو بحر عبد الله بن أبي إسحق الحضرميّ (مولى لحضرموت): كان إماماً في النحو ، وهو أول من وضع عِلَله و جرَّد أقيسته .و قد هَجَاه الفرزدقُ لأنه كان يُخَطِّئه في بعض شعره فقال:

ولو كانَ عبدُ اللهِ مَولىً هَجَوْتُه   ولكنَّ عبدَ الله مولى مَوَاليا !!

(أيْ لو كان عبد الله مولًى من الموالي لكنْتُ ربما تنازلْتُ و قلْتُ فيه هجاءً ،ولكنّ هذا الرجل هو أقلّ من ذلك فهو مولى لناسٍ من الموالي !! فهو كما ترى أحسّ مِنْ أنْ أتكلَّفَ هجاءَه !!.)

وهكذا فأنتَ ترى كيف كان رجلٌ كالفرزدق (وهو أعرابيٌّ من بني تميم) ينظر نِظْرَةَ احتقارٍ و انتقاص إلى عالم مسلم جليل فقط لكونه غير عربي .

٥-الخليل بن أحمد الفراهيدي (عربي) .

---

[1] سير أعلام النبلاءج: ١٠ص: ٥٥١

٦- سيبويه : هذا العلم الأعظم في علم النحو والخالد في تاريخ علوم اللغة والنحو ، وهو (فارسي الأصل)، توفي عن عمْرٍ لا يتجاوز بضعة وثلاثين عاماً .

٧-الكسائي: (فارسي) أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز(الأسدي بالولاء)الكوفي المعروف بالكسائي أحد القرّاء السبعة كان إماماً في النحو واللغة والقراءات.وهو مُناظر سيبويه وأحد أعظم علماء النحو في الكوفة .

٨- أبو زكريا الفرّاء : (فارسي ديلمي) إمام الكوفيين في علوم النحو واللغة ؛ قال عنه ثعلب : " لولا الفرّاء ما كانت اللغة " .!

٦- الأخفش إمام النحو أبو الحسن سعيد بن مسعدة البلخي ثم البصري (مولى بني مجاشع) أخذ عن الخليل بن أحمد ولزم سيبويه حتى برع وكان من أسنان سيبويه بل أكبر منه سناً.

٧- خَلَفٌ الأحمر : تركي الأصْل مِنْ أبوين تركيّين من " فرغانة " .

٨- حمّاد الراوية : فارسي الأصل .

٩- الأصمعي : (عربي أصيل ، بل وذو عصبية للعرب)

١٠- الأخفش الأكبر و الأوسط و كذلك الأخفش الأصغر: كلهم من الموالي.

١١- أبو بكر الخوارزمي (اللغوي) وهو من خوارزم تركي الأب وأمه فارسية من طبرستان .

١٢- عبد العزيز الجرجاني (فارسي).

١٣- أبو نصر الجوهري (تركي من فاراب بتركستان) لغويّ من أئمّة اللغة وهو صاحب الكتاب الشهير "معجم الصِّحَاح "؛ وكان أيضاً خطّاطاً عظيماً .

١٤ – أبو علي الفارسي .

١٤- أبو القاسم الزجَّاج النحوي الشهير (فارسي).

١٥- أبو سعيد السيرافي : شارح كتاب سيبويه و أحد أعظم النحويين من بعده .

١٦- أحمد بن فارس الرازي (فارسي) صاحب المقاييس .

١٧- ابن جنِّي (روميّ) وهو اللغوي الشهير صاحب الكتاب العظيم " خصائص العربية".

١٨- يونس بن حبيب .(من الموالي).

١٩- عبد القاهر الجرجاني (من جرجان) و أهل جرجان خليط من الإيرانيين و الأتراك.واضع علم البلاغة و مؤسس علم البيان .

٢٠- السكَّاكي : أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر الخوارزمي (تركي الأصل) .تابع عمل الجرجاني فبلغ فيه الغاية .

٢١- ابن سِيْدَه (ت ٤٥٨هـ): هو إمام اللغة أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي (إسباني الأصل من مَرْسيا) كان عالماً لغوياً عظيماً و قد اشتهر بكتابه (المُحْكَم) ، وكان ضريراً (أعمى)و ابن ضريرٍ أيضاً . وكان شعوبياً يفضّل العجم على العرب .

٢٢-ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) (إسباني)علّامة الأديب الأخباري صاحب كتاب " العقد الفريد" أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير المرواني مولى أمير الأندلس هشام بن الداخل الأندلسي القرطبي ؛ وكان موثَّقاً نبيلاً بليغاً شاعراً ، عاش اثنين وثمانين سنة .

الأدب (الشعر والنثر):

أعظم أعلام النثر في الأدب العربي هم من غير العرب ، بل إنهم هم الذين بسَطوا علم الكتابة الأدبية ، إذ لم تكن قبلهم معروفة لأن العرب كانوا أميين لا يقرؤون ولا يكتبون ولا يحسبون ، وقد قال الله تعالى في كتابه الكريم: " هو الذي بَعَثَ في الأمّيين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته.."
سورة الجمعة\آية (٢)

و قال الرسول (ص) :
« إنا أمَّةٌ أُمّية ؛ لا نَكتُبُ ولا نحسُبُ. الشهر هكذا وهكذا وهكذا» وعَقَدَ الإبهام في الثالثة «وأشهر هكذا وهكذا وهكذا» يعني تمام الثلاثين)) رواه البخاري ومسلم و أبو داوود و أحمد و البيهقي .

١- عبد الحميد الكاتب : فارسي الأصل . وهو مؤسس طريقة الكتابة والكتابة الديوانية (المخاطبات الرسمية) التي كان يعرفها الفرس منذ تاريخهم القديم الحضاري .

٢- ابن المقفع : (صاحب كتاب كليلة و دمنة) أشهر من أن يُعَرّف ،كان فارسياً مجوسياً واسمه الأصلي " رُوزْبِــه "ثم أسلم وتسمَّى بعبد الله ،وكان شعوبياً يكره العرب .

٣- سهل بن هارون : أستاذ الجاحظ ، وهو فارسي شعوبي يحتقر العرب، وقد ألّفَ رسالةً " في ذمِّ الكرم ومَدْح البُخْل والاقتصاد" نكايةً بالعرب الذين يَتَمَدَّحون بالكرم رياءً .

٤- أبو عثمان الجاحظ : فارسي الأصل وهو من أعظم أعلام النثر العربي ، وقد كان في أول أمره يَتَــتَلْمَذُ على سهل بن هارون بل وينتحلُ اسْمَه أحياناً لتسويق كتاباته ونشرها .

٥- ابن قتيبة الدينوري : (تركيٌّ من مَرْو الرُّوْذ في خراسان) وهو في مكانة الجاحظ علماً وأدباً وثقافةً موسوعيةً .

٦- أبو حنيفة الدينوري (فارسي شعوبي) وهو عالمٌ أديبٌ موسوعيُّ المعرفة ، يُقَارَن بالجاحظ في علوّ قَدْره و رفعة شأنه ،وهو صاحب "كتاب الأخبار الطوال "في التاريخ ،وكان معاصراً للجاحظ ويُفَضّله بعضُ النقاد على الجاحظ في طلاوة البيان وحُسْن العبارة .

٧- أبو علي القالي : إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان القالي اللغوي. كان جده سلمان مولى عبد الملك بن مروان الأموي كان أحفظ أهل زمانه للغة والشعر ونحو البصريين.(لعلّه كردي) أصله ومولده في منازكرد (بلدة في شرق تركيا اليوم).

٨- أبوحيان التوحيدي : (فارسي)محبٌّ للعرب بل متعصِّب للعروبة والعرب والعربية ،وكذلك كان الجاحظ و ابن قتيبة و الزمخشري ؛ وهو أحد أعظم أعلام النثر العربي .

٩- عمرو بن مَسْــعَدة الصُّولي : تركي الأصل ،كان جدّه "صُوْل تكين" مَلِكاً على جرجان قبل الفتح الإسلامي ثم اعتنق الإسلام مع ذويه..كان كاتباً في ديوان الوزارة وعَلَماً من أعلام البلاغة يشهد له بذلك أعلامٌ من معاصريه كجعفر البرمكي و المأمون و وزيره الفضل بن سهل و غيرهم ...

١٠- إبراهيم بن العباس الصُّوْليّ : وزير كبير للعباسيين ،تركي الأصل ، وكان عَلَماً عظيماً من أعلام الأدب والترسُّل والشعر .

قال عنه الشاعر الكبير دعبل الخزاعي وكان شديدَ الإعجاب بشعر إبراهيم :

" لو تكسَّبَ إبراهيم بن العبّاس بالشّعر لترَكَنا في غيرِ شيء !"

أي لو تكسَّب إبراهيمُ بشعره في مديح الخلفاء و ذوي النفوذ لما ترك لنا ما نتكسَّب به من شعرنا.

٩- أبو بكر الصُّولي : كان أيضاً وزيراً مكيناً لبني العباس ، وعلماً من أعلام الأدب والشعر والترسُّل والنقد ، وهو ابن أخي إبراهيم بن العباس .وكان ماهراً جداً في الشطرنج

١٠ - أبوبكر الخوارزمي (اللغوي) : وقد ورد ذكره .

١١- الوزير ابن العميد : فارسي من قُمّ ، كان وزيراً لدولة البويهيين الفارسية، وعلم من أعلام فن الكتابة والترسّل والمخاطبات الديوانية (ولذلك قالوا : بدأتِ الكتابةُ بعبد الحميد (الكاتب) وانتَهَتْ بابن العميد)

١٢- الوزير البويهي (الصاحب بن عباد) : فارسي ، عالم باللغة ، أديب كبير من أعلام النثر العربي ، كان معاصراً لابن العميد ، ودُعي بالصاحب لصحبته له في شبابه .

١٣- أبو هلال الصابي : وهو من صابئة حرَّان(سرياني الأصل أو من شعب الهوريين Hurrean وهم السكان الأصليين القدماء لتلك المنطقة).

ومن الشعراء غير العرب نذكر : (ونلاحظ أن موجة الشعراء غير العرب برزت منذ نهاية العصر الأموي و بداية العصر العباسي) :

١- اسماعيل بن يسار (النِّسائي) : وقد ورد ذكره .

٢- بشار بن برد : وهو من طخارستان (فارسي أو تركي قديم) لأن قبائل Tocharian وهي قسم من قبائل ذات أصل غامض مختلط (تركية -إيرانية)كانت تسكن في إقليم(قانصو) في شمال غرب الصين . وهو أحد أبرز و أقدم شعراء الشعوبية .

٣- صالح بن عبد القدوس (فارسي الأصل).كان مانوياً متزندقاً ، وله في ذلك أشعار كثيرة.

٤- حـــمَّاد عَـــجْرَد :(من الموالي) من شعراء المجون و الظرف . و يقال إنه كان من ندماء الخليفة الأموي الفاسق الوليد بن يزيد ثم للأمير العباسي محمد بن أبي العباس السفاح..

٥- عبد الله بن المبارك (تركي من مرو) يعدّ من كبار الحفّاظ في عصره و أحد من تشدّ الرحال إليه للنهل من معين علمه (د.شوقي ضيف \ت. الأدب العربي ص٤٠٣)

٦- مسْلم بن الوليد : فارسي الأصل ،وهو أستاذ مَنْ بعدَه من الشعراء الأفذاذ كالمتنبي وغيره .

٧- أبو نواس : فارسي الأصل وأحد أعلام شعراء الشعوبية .

٨- أبو تمام (الطائي ولاءً): وهو روميّ الأصل يدَّعي النسَبَ الطائي ، وهذا كان مَطْعَناً عليه من أعدائه ، فقد أوسعوه سخريةً بسبب ذلك النسب الطائي المزعوم .

٩- ابن الرومي (ومن أبٍ روميّ و أمٍّ فارسية) .

١٠- ديك الجن الحمصي (عبد السلام بن رغبان) : من أب رومي وأم فارسية ، وهو شعوبي أيضاً .و قد مرَّ ذكره.

١١- أبو يعقوب الخُـــرَيمي : تركيٌّ من بلاد الصغد ، وقد مرَّ ذكره .

١٢- مهيار الديلمي (فارسيّ) وقد مر ذكره .

١٣- أبو الشَّمَقْمَق (فارسي شعوبي هجّاء سليط اللسان).

١٤- أسرة (بني مروان بن حفصة) الشعراء العباسيين، وهم خراسانيون من أسرةٍ كانت تدين باليهودية ، كانوا يمدحون الخلفاء العباسيين .

١٥- العكوَّك : (خراساني) شاعر نابه .

الـــعُـــمْران :

معروف أن البـــنَّائين المَهَرَة في الإسلام كانوا من اليونان والفرس والرومان والهنود ، و لم يكن للعرب في ذلك شأن يُذكر ..

ولسوف نقصُّ عليك قريباً خبرَ " قصر الخَـــوَرْنق " الذي بناه البنّاء الروميّ (اليوناني) سِـــنِمّار

ونذكر لكم أيضاً الحصونَ في يثرب و خيبر وهي مِنْ بناء بني إسرائيل ؛ وكانت موضعَ عَجَب العرب و استحسانهم !.

وفي بلاد الشام ليس هنالك من بناءٍ فخْمٍ مهيبٍ ذي هندسة مُعْجِبة إلا والرُّوحُ اليونانيةُ بارزةٌ فيه على عهودها المختلفة ، حتى مسجد بني أمية الكبير بدمشق الذي أمر ببنائه الوليد بن عبد الملك (كان بناؤه على يد بنّائين طلَبهم الخليفةُ مِنْ بلاد الروم " البيزنطيين "؛ ومثل ذلك تقوله عن مسجد الصخرة في القدس ، وعن غيرها المساجد والعمائر الفنية النفيسة لذلك العهد و ما قبله !) (كـ الفنون الجميلة \ عمر رضا كحالة)

أيضاً : مسرح بصرى وتدمر والبتراء كل هذه هي الآثارهي فنون (يونانية-رومانية) بأيدٍ يونانيةٍ- رومانية أيضاً بُنيت لدول مختلفة كالتدمريين والأنباط وغيرهم ..

(تاريخ العرب قبل الإسلام \ د.أحمد هبّو ص ١٩٤-١٩٧و من ٢٠٨ -٢١٠)

وأعظم الآثار الإسلامية وأرقاها ترجع إلى عهود تركية ومغولية (عهد السلاجقة والمغول و مغول الهند والصفويين والعثمانيين أخيراً) .مثل: ضريح " تاج محلّ" و " غور أمير" و "بيبي هانم "

و مسجد" فاتح بور "و " جامع السليمانية في استانبول" و " التكية السليمانية بدمشق "و بقية مساجد استانبول وقصورها الفخمة المهيبة " توب كابي" و"طولمةباغجة" و "يلديز" و" بشيكتاش" و غيرها....

الزخرفة والنقش والخط العرب : (راجع كـ الفنون الجميلة ...\عمر رضا كحّالة)

كل هذه الفنون كان أبرع مَنْ عمل فيها الفرْسُ والخراسانيون والإسبان والأتراك ، وأما ما يُسَمَّى (فن الأرابيسك) ، فهي كلمة أطلقها الأوربيون على الزخرفة والفنون الإسلامية الهندسية الخالية من التصوير الحيّ للحيوانات والإنسان ، ولصِقَتْ بها الصفة العربية لكونها إسلاميةً محضةً نشأتْ في ظل الروح الإسلامية، وظهرت أولَ ما ظَهَرَتْ منذ العهود العربية الإسلامية الأولى . فالنسبة هنا إلى العهد الحاكم وليس إلى الأيدي الصانعة !

ومعروف أن العرب كانوا أمّيين لا يعرفون القراءة والكتابة إلا فيما ندر ، وقد ظلّتْ دولتهم المترامية الأطراف تكتُبُ دواوينها بالآرامية والرومية والفارسية وتتعاطى بالنقود الرومانية قرناً من الزمان تقريباً ! ولولا عزيمة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وإصراره على تعريب النقد و الدواوين لبقي الحال على ما هو عليه إلى عهْدٍ بعيد .

وقد ظلَّ الخطُّ العربي خطاً بدائياً مأخوذاً عن الخط المُسْنَد (الذي اشتُقّ قديماً من الآرامية ، ليس فيه نقط و لا تشكيل ، وتعْسُرُ معه القراءةُ عُسْراً شديداً) حتى جاء عهد الحجاج بن يوسف .
ثم ظهر في الكوفة الخطُّ اليابس الذي تطوَّر بطيئاً حتى صار يسمى بـ"الخط الكوفي " ثم ظهر معه الخط الديواني والنسخي .. ، وتطوَّر الخطُّ نفسُه ليكون مادة للزخرفة والتزيين ؛

ولكن الخطَّ كفنٍّ راقٍ بلغَ أوجَهُ على يد الخطَّاطين الأتراك الذين اشتقّوا من الخطوط القديمة خطوطاً جديدةً وأوجدوا بعضاً ’آخر منها ، وأعلام الخط من الأتراك أشهر من أن يُعَرّفوا ..(أمثال : حمدي الأماسي و آق حصاري و زهدي و عزت و حقي و مصطفى نظيف و حامد الآمدي و
عبد العزيز الرفاعي و
حسين أفندي و رَسَا و غيرهم ...)

و لم يظهر "فنُّ المُنَمْنَمَات" إلا في العهد المغولي متأثّراً بالروح المغولية القريبة من النَّفَس الصيني في الرسوم الدقيقة الناعمة !

وفي الوقت نفسه تطوَّر على أيديهم فنُّ التجليد (تجليد الكتب) وتذهيبها على يد فناني الفرس والترك والمغول فبلغت هذه الفنون ذروتها على أيديهم فهم أربابها بلا ريب!

وحتى الوَرَق قد عَرَفَه العربُ عن طريق الأتراك الأيغور في تركستان الشرقية ، وهذا معروف معلوم عند علماء التاريخ ..

الموسيقا :

لم يكن للعرب أدنى معرفة بالموسيقا ، و لم تَتَجاوز معرفتُهم بها غناء " الحُدَاء " وهو تنغيمٌ شفويٌّ ببعض الشعر أو الكلامِ لتنشيط الإبل على السير في أثناء السفَرِ الطويل .

وفي أعراسهم واحتفالاتهم كان الموضوع لا يزيد عن النَّقْرِ بالدّفّ الذي كانوا قد عَرَفوه عن الفرس أيضاً ..

فلما جاء الإسلام بفتوحاته الواسعة ، شاعتْ وكَثُرَتْ طبقةُ العبيد والأرقَّاء الذين استعبدهم العربُ المسلمون في سبايا حَمَلات الفتح ، فدخل هؤلاء الأرقّاء والموالي في نسيج المجتمع العربي الإسلامي بما يحملون من ثقافة أقوامهم وفنونهم وموسيقاهم ، ولذلك فإنك لا تجد أحداً من أعلام الغناء والموسيقا في التاريخ العربي إلا وهو من الموَالي (فرس ، ترك ، روم ، زنج ، ...)

وإليك تذكيرٌ بأهمّ وأعظم أعلام هذا الفنّ (الموسيقا والغناء) :

(راجع كـــ الأغاني لأبي فرج الأصفهاني وكـــ\ الفنون الجميلة في العصور الإسلامية\للأستاذ عمر رضا كحّالة ص٢٦٨وما بعدها)

١- مَعْبد بن وهْب:" مولى ... كان أبوه أسود (زنجي) ...وهو إمام أهل المدينة في الغناء."

٢- طُوَيْـــس (مولى لبني مخزوم) هو أول من غنّى بالعربية في المدينة .

٣- ابن مِـــسْـــجَح (زنجي) " مولى بني جُمَح ، مكيّ الموطن ، من فحول المغنّين ...نقل غناء الفرس إلى غناء العرب ، ثم رحل إلى الشام فأخذ ألحان الروم وتعلّم منهم الضرب (العزف) ثمّ قدم الحجاز وقد أخذ محاسن تلك النغم ."

٤- نُصَيب بن رباح (زنجي) مولى عبد العزيز بن مروان ، مطرب و شاعر أيضاً.

٥- ابن مُحْرِز : (فارسي) وكان يتنقّل في إقامته بين مكة و المدينة .

٦- ابن سُـــرَيج (تركي) عاش في عهد الخليفة الراشدي عثمان (ض) وقد "سكن في مكة ... وهو أول من ضَرَب(عزف) بالعود على الغناء العربي بمكة... وكان أحسن الناس غناءً ".

٧- الغريض (من البربر) ". .ولقّب بالغريض لأنه كان طريّ الوجه غضّ الشباب حسن المنظر ؛ ...أخذ الغناء عن ابن سريج.. "

٨- إبراهيم الموصلي و ابنه إسحق الموصلي وهما فارسيان من بلاد الدَّيْلَم : وهي المنطقة الجبلية في الشمال الغربي من إيران .

٩- زِرْيـــاب : من الموالي " زنجي". وكان أسود جميل الصورة كان موقع إعجاب وتقدير في الدولة العباسية أولاً ثم في الأندلس (عند بني أمية هناك) عندما هاجر إليها بعْدُ .

١٠- عَـــلُّوَيْـــه: هو علي بن عبد الله بن سيف (تركيّ الأصل من السُّـــغْد).

١١- مُـــخارِق بن يحيى : (مولى هارون الرشيد) "كان أبوه جزّاراً مملوكاً " .

و ينضاف إلى هؤلاء عدد كبير من المغنّيات كلهنّ –بلا استثناء- غير عَرَبيّات من الجواري أو الموالي، من أمثال عَرِيب و حبابة و جميلة و عَزّة الميلاء و سلاّمة القسّ و عاتكة بنت شهدة و عُبيدة و فريدة و بذْل و دنانير البرمكية و قَلَم الصالحية و عِنان و وغيرهنّ ....

وهكذا فالغناء والموسيقا -وخاصة بعد تطوّر المجتمع العربي الإسلامي نحو حضارات الشعوب الأخرى وتأثّره بها - أصبحت صناعةً رفيعةَ الشأن عظيمةَ القَدْر وليست محطَّ ازدراء كما كان يُنْظَر إليها في الصدر الأول للإسلام .

وقد يقول أحدٌ إن العرب لكونهم كانوا سادة المجتمع العربي الإسلامي الأول ، فقد كانوا يترفّعون عن امتهان الموسيقا والغناء .. ويرون أن هذه المهن شأنٌ من شؤون العبيد والأرقّاء والموالي !

ونحن نردُّ على هذا القول بأمرين :

أولهما : أن العرب جميعاً(سادةً وسفلةً ، وأعلاهم وأسفلُهم) واحدٌ في عَدَم مشاركتهم بقليل أو كثير من هذا الفنّ .. وقد عَرَفْنا في المجتمع العربي - قديمه وحديثه وما قبل الإسلام وما بعده - أن دُوْرَ اللّهو والمجون كانتْ شائعةً ذائعة ، وأنه كان للعربِ نصيبٌ كبيرٌ في ارتياد هذه الحانات والدُّور ، وكان لهم باعٌ طويل في الانغماس باللهو والفسْق ، فقد كان العربيُّ مُشارِكاً مُهماً في الجانب المظلِمِ المسيءِ من دور اللهو والمجون .. ولكنه لا يترفَّعُ إلا عن أنْ يكونَ مبدِعاً في الموسيقا و الغناء ..!!

و كيف يزعم الترفُّعَ مَنْ كان منهم أعلامُ البُخْل من أمثال "أبي يعقوب الكندي"(الطبيب و الفيلسوف العربي المعروف) الذي أفرد له الجاحظ فصْلاً كاملاً من كتابه " البخلاء" يتحدَّث فيه عن نوادره في الشحّ و كزازة النفْس !

وكذلك عطيَّة الخَطَفَى (والد الشاعر جرير) الذي بلغ في الخسّة أنه كان يَرْضَعُ الحليب من ثدْيِ شاته كيلا يسمعَ أحدٌ مِنْ جيرانهَ صوتَ الحلْبِ ، فيطلب منه شيئاً !

وكان منهم" جَذَعُ الأزديّ" الذي أصبح في تاريخ العرب رمزاً للبخل حتى قيلَ فيه : " خُذْ مِنْ جَذَعٍ ما أعطاك " و أصبح مثَلاً !!

ومنهم كان مضربُ المثل في إخلافه للوعد وهو (عُرْقُوب التميمي)ويقول المثل فيه(مواعيدُ عرقوب !)

ومنهم قبيلة " فَزَارَة" التي كانت مشهورةً بين العرب بإتْيان الإبل (أي بِمُجَامَعَة نُوْق الإبل) ، حتى قال فيهم الشاعر :

لا تأمَنَنَّ فَزَارياً خَلَوْتَ به على قَلُوصِكَ و اكْتُبْها بأَسْيارِ

جاء في لسان العرب \في مادّة كَتَبَ \:

((كَتَبَ الدَّابّةَ والبَغْلةَ والناقةَ يَكتُبها و يَكتِبها كَتْباً ...خزَمَ حَيَاءَها(فرجها) بحلْقةِ حديدٍ أو صُفْرٍ تضُمُّ شُفْرَيْ حَيَائها لئلا يُنْزى عليها . قال الشاعر:

لا تأمَنَنَّ فزارياً خلَوْتَ به   على بعيرك واكتُبْها بأسْيار

وذلك لأن "بني فزارة" كانوا يُرْمَون بغِشْيان الإبل ، والبعير هنا : الناقة ، و يُروى " على قلوصك" ، وأسيار:جَمْعُ سَيْر وهو الشَّرَكَةُ ...قال شَمِر :كلُّ ما ذُكِرَ في (الكَتْبِ) قريبٌ بعضُه مِنْ بَعْضٍ، وإنما هو جَمْعُكَ بين الشيئين ؛ يُقال : " اكتُبْ بَغْلَتَكَ " وهو أنْ تَضُمَّ بين شُفْرَيْها بِحَلْقة .)) انتهى

ومنهم المَثَلُ الأعلى في الخيانة والنذالة ومثاله " أبو رِغَالٍ الإياديّ "،وكان دليلاً لجيشِ" أبرهة الحبشيّ " يُرشده في طريقه إلى الكعبة ليهدمها في حَمْلة الفيْل الشهيرة لقاء جائزةٍ من المال !.

وقبره معروفٌ في الطائف (بالسعودية) في ديار ثقيف ، ولذلك كان حسّان بن ثابت الأنصاري يقول :

إذا الثَّقَفِيُّ فَاخَرَكُم فقُولوا :   هَلُمَّ نَعُدُّ شَأْنَ أبي رِغَالِ

ومنهم المَثَلُ الأعلى في إنكار المعروف وفي استغلال الغير حين الحاجة إليه ، ثم قتْله عند قضاء الحاجة منه ؛ وأمثلةُ ذلك كثيرةٌ نذكر بعضها :

١- قصة المهندس الرومي البنَّاء الشهير " سِنِمَّار " الذي بنى للنعمان قصراً فخْماً عظيماً كان أحدوثةَ الزمان ، فماذا كان جزاؤه ؟ كان جزاؤه القتل !لماذا ؟!

فقط..لأن النعمان كان لا يريد لسنمَّار أنْ يبنيَ قصراً مثلَه لأحدٍ غيرِه !

حتى قال الشاعر مُتمثّلاً بهذه الحادثة المُنكَرَة :

جَزَاني - جَزَاهُ اللهُ شرَّ جَزَائِه-   جَزَاءَ سِنِمَّارٍ ومَا كان ذا ذنْب

" وسنمّار هو الذي بنى الخورنق على باب الحيرة للنعمان الأكبر ابن امريء القيس ملك الحيرة فألقاه من أعلاه فقتله . وقصته طويلة مشهورة فلا حاجة إلى ذكرها."

(عن كتاب وفيات الأعيان ١ ج١٤ ص٣١١)

٢- قصة عَزْل موسى بن نصير(بعد إنجازه فتح الأندلس)ثم اغتيال ابنه عبد العزيز الذي أرسل إليه الخليفة الأموي مَنْ قَتَلَه وهو قائم يصلي في المحراب ! وما حدث من غدْر بني أمية والجنودِ العربِ بقتيبة بن مسلم (فاتح ما وراء النهر) إذ قتلوه وإخوته جميعاً في خيمة الجهاد !!

٣- اغتيال أبي سَلَمَة الخلاّل وقتْل أبي مسلم الخراساني (اللَّذَين على أكتافهما قامت الدولة العباسية) مِنْ قبَل الخلفاء العبّاسيين بعد إتمام عَمَلِهما ، ومثل ذلك وقَعَ للبرامكة وزراء الرشيد ! ومثل ذلك كثير في تاريخ العرب !

ثانيهما : أن صناعة الموسيقا والغناء لم تكن – و خاصة في العهد العباسي - منبوذةً أو مُحتقرة ، بل على العكس إن كثيراً من أعلامها كانوا سادةً نُجُبًا من عِلْية الناس ، وكانوا سُمَرَاء للخلفاء ومستشارين لهم ؛ فقد كان إبراهيم الموصلي وابنه اسحق من بطانة الخلفاء العباسيين ومن المقرّبين إليهم مع كل تبجيل واحترام وتقدير ..

إذنْ .. فأنتَ مع العرب أمامَ شعْبٍ إذا وجدْتَ فيه الجوادَ الكريمَ ففيه أيضاً البخيلُ الشَّحيح ، وإنْ وجدْتَ بينهم الصادقَ الأمينَ ففيهم أيضاً الكذّابُ الأشِر والمُماطِلُ الدنِيء وهكذا...
وإذن فموضوعُ ترفُّعِهم عن صناعة الغناء والموسيقا غيرُ صحيح ، لأنَّ بعضَهم إذا ترفَّعَ عنها فلن يفعل جميعُهم ذلك !!
وإذن .. فليس أنَفُهُمْ من صناعة الموسيقا أكثرَ مِنْ كونه عَجْزٌ عنها وأنَّ " العنقود حامض " كما يقول المَثَلُ في الثعالب !!
ولعلَّ أكبرَ دليلٍ على ما نقول هو أن موسيقاهم في عصرنا الحالي لا تَعْدو أن تكون غِناءً، ولا تزيد عن كونها- في الغالب - تقليداً مُرَقَّعاً لموسيقا الشعوب الأخرى !

ثبت (لائحة) ببعض من أهم و أبرز شخصيات الثقافة و النهضة العربية في العصر الحديث :

١. **أسرة محمد علي باشا التركية** التي كانت بانفتاحها و تنورها سبباً هاماً لازدهار مصر و ريادتها للعالم العربي في ذلك الوقت ، حين أنهت تحكم المماليك الشراكسة الجائر و المتحجر بخيرات مصر .و هنا لابد من تصحيح الخطأ الشائع عن كون محمد على باشا من أصل ألباني ، يقول الدكتور أحمد طربين في كتابه الجامعي : تاريخ المشرق العربي المعاصر \ الطبعة الخامسة —جامعة دمشق\صفحة ٤٩ :

((ولد محمد علي في مدينة بحرية صغيرة في مكدونيا تدعى (قَـــوَلَة)عام١٧٦٩ ، وهو تركي عثماني لا يمتُّ للألبانيين و لا لصقالبة مكدونية و لا يونانها بسببٍ و لا نسب .)) ولكنه حين قدم مصر جاء مع الفرقة الألبانية التي أرسلها السلطان العثماني إلى مصر مما أشْكَلَ أمرُه على البعض فحسِبَ أنّ له أصلاً ألبانياً.

٢. جمال الدين الأفغاني : (أفغاني الجنس)رأس النهضة الثورية الإسلامية .

٣. محمد عبده (مصري تركماني) رائد التنوير في مصر .

٤. آل العلاّمة أحمد تيمور باشا : هو من أب كردي و أم تركية . برز من هذه الأسرة أخته الشاعرة المثقفة عائشة التيمورية وهي رائدة من رائدات الحركة النسوية في العالم العربي.و كذلك برز ولداه : محمد و محمود تيمور من رواد القصة و الرواية .

٥. أحمد شوقي بك : كرديّ الأب تركيّ الأم .نشأ في كنف الخديوي إسماعيل و عاصر من بعده من خلفائه من هذه الأسرة التركية ، ولذلك تجده شديد الاعتزاز بتركيَّـــته، و ارجع إلى ديوانه " الشوقيات " فسوف تجد أجمل قصائده هي القصائد التي تفخر بالأتراك !

٦. حافظ إبراهيم (شاعر النيل) مصري الأب ، تركي الأم و اسمها زبيدة هانم البورصلي.

٧. مصطفى لطفي المنفلوطي مصري الأب تركي الأم أيضاً.

٨. **محمد فريد بك** (أحد كبار الزعماء الوطنيين بمصر و له تمثال في القاهره تخليداً لذكراه .) تركي الأصل مصري الوطن. أنفق ثروته في سبيل القضية المصرية.

٩. قاسم أمين : تركي الأصل كان بعض أجداده تولى على السليمانية وهي مدينة عراقية كردية في معظمها من قبل السلطان العثماني ، فلما نزحوا إلى مصر ظن بعض من كتبوا عنه أنه كردي الأصل .(كـــ تعريف بالنثر العربي الحديث للدكتور عبد الكريم الأشتر \ ص١٤٤).

١٠. أحمد الكاشف : شاعر تركي من مصر كان شديد الاعتزاز بتركيته ، ولكنه و قف ضد بعض مظاهر الخلل التي كان يراها عند الحكام من الأسرة الخديوية .

١١. أحمد محرَّم : شاعر تركي كبير من مصر و هو صاحب الإلياذة الإسلامية. و هي أول محاولة شعرية في هذا المجال في أدبنا العربي .

١٢. ولي الدين يَكَن : شاعر بارز عذب البيان ، ثائر مصلح ، كان من أسرة تركية ثرية عزيزة المكانة ، يكفيه أن خال أبيه هو محمد علي باشا حاكم مصر آنذاك .و كان أعمامه في الطبقة الأولى من مسؤولي الدولة العثمانية . ولد في الآستانة و تيتَّم صغيراً فقدم مصر مع عمه الذي عين ناظراً للخزينة (وزير المالية) بـــمصر . كان بسبب بغضه للاستبداد و رغبته الثائرة في الإصلاح قد تصادم كثيراً مع السلطان عبد الحميد الثاني .

١٣. داوود حسني : موسيقار مصري الوطن تركي الأصل كان رائداً من روّاد التجديد في الموسيقا العربية .

١٤. يحيى حقي : الكاتب القصصي المصري الشهير كتب بعضاً من روائع القصص منها " قنديل أم هاشم ،و البوسطجي ،و غيرهما ...و هو تركي الأصل .

١٥. الدكتور حسين فوزي :عالم في البحار و كاتب قصصي رفيع ، من أشهر أعماله :" سندباد عصري" يحكي فيها قصة رحلة علمية قام بها مع فريق علمي أوروبي في البحر الأحمر.

١٦. الشاعر الزجّال بـــيرم التونسي : من أصل تركي تونسي .كتب كثيراً من أشهر أغاني أم كلثوم .

١٧. آل العظمة بدمشق و منهم : يوسف العظمة البطل الوطني شهيد ميسلون : تركي كان أجداده من أمراء التركمان.

١٨. عبد الرحمن الكواكبي : تركماني الأصل، أصله من أردبيل ، يعود في نسبه إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي السني رأس الأسرة الصفوية التركمانية التي تشيَّعَتْ ثم حكمَتْ إيران.

و أسرة الكواكبي -كبني عمّهم الصفويين – ينتحلون نسباً مزوّراً ينتهي إلى فاطمة الزهراء عن طريق ابنها الحسين . (راجع كـــ: التعريف بالنثر العربي الحديث \د. الأشتر\ص١٣١- و كـــ: المشرق العربي في العهد العثماني \ د. عبد الكريم رافق \ ط ٥: جامعة دمشق) .

١٩. خير الدين الزركلي : صاحب " الأعلام " كردي الأصل ممن قبيلة" زركي" الكردية التي تقطن شمال بحيرة وان في تركية . دمشقي المولد .

٢٠. الدكتور الشيخ: محمد سعيد رمضان البوطي ، كردي ،من مواليد بوطاد في تركية ١٩٢٨قدم به أبوه إلى دمشق و استقر بها .و كذلك كل من : كفتارو و شيخو و بوظو و آل الأيوبي كلهم أكراد دمشقيون .

٢١. خليل مردم بك : شاعر دمشقي من أسرة تركية شريفة تناسلت من جدهم التركي لالا باشا والي دمشق على عهد السلطان سليمان القانوني و صاحب "جامع لالا باشا" الأثري بدمشق

.و شاعرنا هو مؤلف النشيد الوطني السوري : " حماة الديار عليكم سلامْ أبت أن تذلَّ النفوسُ الكرامْ ".

وكان في أخريات أيامه رئيساً لمجمع اللغة العربية بدمشق.

٢٢. محمد كرد علي : علم من أعلام الدفاع عن العروبة و الحضارة العربية ، كردي الأب شركسي الأم .

٢٣. الرئيس شكري القوّتلي : من أسرة ثرية ذات أصل تركي -على الأرجح- جاءت من بغداد و نزلت دمشق منذ حوالي ثلاثة قرون .

٢٤. آل العظم : أتراك . أصلهم من قونية في تركيا ، أول من دخل بلاد الشام من هذه الأسرة جدهم "إسماعيل باشا العظم" ، انتقل أبوه إلى بغداد ، وجاء هو إلى دمشق فسكنها و أعقب ثلاثة من الأولاد هم :

١. سعد الدين باشا (في حماة) ومنه آل العظم هناك .
٢. أسعد باشا العظم (في دمشق) و منه آل العظم هناك ، وهو صاحب الخان و القصر الأثريين البديعين.و كان أشهر من تولى ولاية دمشق للعثمانيين .
٣. إبراهيم باشا (في معرة النعمان) و منه آل العظم هناك . (راجع الأعلام للزركلي)

٢٥. آل العمادي في دمشق : أصلهم أتراك من بخارى. ينتحلون نسباً هاشمياً حسينياً . و مثلهم :

٢٦. آل المرادي في دمشق : أتراك أيضاً أصلهم من بخارى ،.

٢٧. آل العسلي بدمشق : يرجعون في أصولهم إلى المماليك الشراكسة الذين حكموا سورية قديماً.و منهم رئيس الوزراء الأسبق " شكري العسلي " و غيره...

٢٨. الفنان المرحوم نهاد قلعي :دمشقي تركي من جهة أبويه ، أصل كنية أبيه " حقّي" و لكن غلبت عليه كنية جدته " القلعي " و كانت تركيةً أيضاً.

٢٩. آل الأتاسي في حمص : من أصول تركية قدم رأس أسرتهم في سورية إلى مدينة حمص في القرن ١١هـ

و كان من هذه الأسرة كثير من علماء الإفتاء و القضاة كانت تعينهم الآستانة لا في حمص و حدها بل في أنحاء شتى من الدولة العثمانية . و قد كان من هذه الأسرة ثلاثة ممن نالوا منصب رئاسة الجمهورية السورية : منهم الوطني الشهير هاشم الأتاسي و الدكتور نور الدين .

هم اليوم يزعمون لأنفسهم نسباً مكذوباً ينتهي إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، ومثل هذا رأيناه كثيراً جداً إلى درجة تبعث على الغثيان، فإن آلافاً مؤلفة من الأسر السورية تنتحل لنفسها نسباً

هاشمياً ثم لا ترضاه إلا بأن ينتهي إلى الحسين السبط لا غيره ، ومن أمثلة هؤلاء الكَذَبة : آل الكيلاني بحماة(أصلهم من جيلان في أذربيجان) و آل الكواكبي بحلب (وأصلهم من تركمان آذربيجان) و آل الأتاسي و الرفاعي و غيرهم بحمص و آل العمادي و المرادي بدمشق . ومثلهم في التاريخ الصفويون التركمان ... و غيرهم كثير.

٢٨.آل(الوفائي و الصوفي و القندقجي و سفرجي و طليمات و كاخياو الحسيني و الترك ..) في حمص كلهم من أصول تركمانية، ونذكر هنا الشاعر الفنان المرحوم " عبد الباسط الصوفي ".
و آل عساف و البارودي و طيفور و السرّاج(ومنهم الموسيقار المطرب نجيب السراج) في حماة هم من التركمان و كذلك أرجّح أن آل الشيشكلي هم من التركمان أيضاً ، كانوا يسكنون المعرة قديماً و لا تزال لهم بقية من أقربائهم هناك وهم " آل الغُزّي" .

٢٩.آل الدالاتي : الدالاتية هم فئة من مؤخرة الجيش العثماني ، كان جنودها من المرتزقة و معظمهم أخلاط من الأكراد و التركمان و غيرهم من أخلاط الأناضول .أخذت هذه اللفظة من الكلمة التركية "دالي" و تعني : " مجنون" .

٣٠.الشاعر جميل صدقي الزهاوي : عراقي من أبوين كرديين من أمراء الأكراد .

٣١.الشاعر معروف الرصافي : عراقي من أب كردي و أم تركمانية من عشيرة القرغول.

٣٢. نوري السعيد:عراقي تركماني الأصل من عشيرة القرغول .و قد أصبح رئيساً للوزراء عدة مرات .

٣٣.الشاعر المعاصرعبد الوهاب البياتي : ينتسب إلى عشيرة البيات التركمانية وهي بطن من قبيلة القاجار.

٣٥. الإمام الخمينائي مرشد الثورة الإسلامية في إيران هو تركماني أيضاً .

٣٦. هاشمي رفسنجاني (الرئيس السابق للجمهورية الإسلامية في إيران) هو تركماني أذربيجاني.

٣٥. رائد المسرح الغنائي العربيأبو خليل القباني (١٨٣٣- ١٩٠٣ م) أصله: هو أحمد أبو خليل بن محمد آغا بن حسين آغا آقبيق ولد في دمشق ،وينحدر من أصل تركي يتصل بأكرم آقبيق ياور(مستشار) السلطان سليمان القانوني، وأحد أجداده هو شادي بك آقبيق الذي بنى مدرسة

الشابكية للعلوم ا لدينية مع جامع كبير و أوقف لهما أوقافَ القَنوات بأجمعها ثم لُقِّب في عهده بالقبَّاني لأنه كان يملك قبّان باب الجابية نسبة إلى القبابـــين التي كانت بذلك التاريخ ملكاً لفريق من العائلات في كل حي من أحياء دمشق .

٣٦ .الشاعر الكبير نزار قباني : تركي من جهة أبويه من أسرة تركية عريضة الجاه هي " أسرة آقبيق" و (آق بيق) تعني بالتركية " الشارب الأبيض" .أمه هي ابنة عم أبيه . و أما أبو خليل القباني فهو عمٌّ لأبيه و أمه أيضاً.

********************************* انـتـــــهـــــى

****